أعلام الفقهاء والمحدثين

الإمام المجاهد
عبد الله بن المبارك

١١٨ - ١٨١هـ / ٧٣٦ - ٧٩٧م

إعداد
د. عصام محمد الحاج علي
أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي
بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

اهداء

إلى المجاهدين من أجل لقمة العيش..

إلى المرابطين خلف الجبال.. وفي انتظار خيوط الشمس..

إلى عبد الله بن المبارك تكريماً لذكراه الخالدة

★★★

إلى أعز الناس...

إلى أمي وأبي..

خديجة ومحمد..

وإلى رفيقة دربي..

د. نجلا - نادين

مع أطيب التمنيات

★★★

وإن لله عباداً عبدوه رهبةً، فتلك عبادة العبيد

وآخرون عبدوه رغبة، فتلك عبادة التجار

وآخرون عبدوه شكراً، فتلك عبادة الأحرار

علي زين العابدين

(ت ٩٤ / ٧١٢ - ٧١٣)

الفصل الأول، عصر عبد الله بن المبارك.

أولاً ـ الأوضاع السياسية في العهدين:

١ ـ الأموي.

٢ ـ العباسي.

ثانياً ـ الحالة الاجتماعية في العهدين:

١ ـ الأموي.

٢ ـ العباسي

عصر عبد الله بن المبارك

ولد عبد الله بن المبارك في سنة ١١٨ للهجرة / ٧٣٦ للميلاد، في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣) وعاش إلى سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م حيث توفي في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩) بذلك يكون ابن المبارك قد عاصر خمسة خلفاء من العهد الأموي ـ المرواني وهم: هشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد. وخمسة خلفاء من العصر العباسي وهم: أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور، والمهدي بن المنصور، والهادي بن المهدي، وهارون الرشيد.

ولقد شهدت تلك الفترة أهم الأحداث السياسية في تاريخ الأمة؛ وهي سقوط الدول الأموية، وقيام الدولة العباسية وذلك في سنة ١٣٢/ ٧٥٠.

والمقصود بالدولة الأموية، هي الدولة التي قامت بقيام

الإسلام واتسعت بالفتوحات الكبرى التي قام بها العرب أيام الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية، ثم انتهت بسقوط الدولة الأموية. وقد وصفت هذه الدولة بالعربية لأن الجنس العربي هو الذي كان حاملاً لواءها، ومصرفاً لشؤونها، فلما قامت الدولة العباسية شارك في إدارة دفة الحكم بعض الشعوب التي تحولت إلى الإسلام كالفرس والترك والبربر وغيرهم.

١ ـ الأوضاع السياسية في العهد الأموي:

ومهما يكن من أمر فإن الفترة التي عاصر فيها عبد الله بن المبارك الحكم الأموي والممتدة من سنة ١١٨ ـ ١٣٢ هـ / ٧٣٦ ـ ٧٥٠ م. فقد شهدت انحطاط الدولة وأفول نجمها، ما عدا الصحوة التي حصلت في عهد هشام بن عبد الملك الذي ورث الحكم بعد أخيه يزيد الثاني؛ الخليفة العابث، الذي انصرف إلى اللهو والغناء، ومات في سنة ١٠٥ / ٧٢٤ بعد حكم دام اربع سنين، وذلك بسبب حزنه على جاريته المغنية حبابة التي غلبت على أمره إلى أن ماتت، فتركها ثلاثة أيام لا يدفنها وهو يشمها ويقبلها؛ فلما شيعها عجز عن المشي، وبقي خمسة عشر يوماً، ومات ودفن إلى جوارها[١].

---

(١) عز الدين علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٩٠ ـ =

فهذه صورة موجزة عن حقيقة وضع الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك وأما الخليفة هشام الذي حاول النهوض بأمر الدولة العربية، فكان على نقيض يزيد، فاتسم عهده بالجدية والحزم، والاهتمام بتحصين مناطق الثغور وامدادها بالفرق المقاتلة (٢) ولا يعني هذا ان هشاماً قد تمكن من القضاء على النتائج السيئة لسياسة سلفه يزيد، الذي أوغر صدور العرب اليمانية، وشعوب البلاد المفتوحة؛ إلا أنه حاول أن يصلح ما فسد، وانقاذ ما يمكن إنقاذه (٣).

ففي العراق عمل هشام على التخفيف من حدة غضب اليمانية، التي لا تزال تحقد على الخلافة الأموية، بسبب هزيمتها على يد يزيد بن عبد الملك، فعزل عامل القيسية عمر بن هبيرة، وارسل خالد بن عبد الله القسري (٤)، وهو من قبيلة محايدة في نزاع القيسية واليمانية، فاستطاع أن يهدىء

= ١٩١، القاهرة: ١٣٤٨ هـ. أبو الحسن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣، ص ١٩٦ وما يلي، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣.

(٢) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد عبد الحميد، ص ٢٤٧، ط ١، مصر: مطبعة السعادة، ١٩٥٢.

(٣) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ص ٢٨١، ط ٣، بيروت: مكتبة الجامعة العربية ١٩٦٦.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٢.

من حدة نزاع القبائل، ويقضي على فتن الخوارج، ويقدم للعراق فترة استقرار طويلة[٥].

غير أن هشاماً عاد فغير سياسته، وعزل خالداً في سنة ١٢٠ / ٧٣٨، بسبب ميله للشيعة أو لأن أمه كانت نصرانية، وعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي، ابن عم الحجاج[٦] وهذا التغيير في المناصب ساعد على عودة الثورة إلى العراق؛ بصورة خاصة من قبل الشيعة الذين كانوا قد قبلوا الخضوع للأمويين؛ منذ ان أخمدت حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[٧] فقد ثار زيد بن علي زين العابدين بن الحسين في الكوفة سنة ١٢٢ / ٧٤٠، فكان أول علوي بعد الحسين «ع» يثور على الخلافة الأموية. وذلك بدافع إصلاح الأمر الذي فسد بتولية الأمويين، وبسبب المعاملة السيئة التي عامله بها هشام وعامله على العراق يوسف بن عمر الثقفي. وقال هو نفسه: انه خرج على الأمويين لأنهم قتلوا جده الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ورموا بيت الله بالمجانيق. وكانت النتيجة انه حُصر هو وأصحابه في مسجد الكوفة، عندئذٍ تفرق عنه اتباعه وخذلوه؛ فلم يبق معه إلا القليل،

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٠ - ٢٣٣.
(٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص٢٣٥ وما يلي.
(٧) عنها بالتفصيل، ماجد، المرجع السابق، ص ١١٢ وما يلي.

فقاتل زيد ومن معه، حتى قتلوا عن آخرهم، ومع أن شيعة زيد دفنوه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً من أن يمثلوا به، إلا أن يوسف الثقفي أخرج الجثة وصلبها وحرقها، وحملت رأسه إلى الأقطار. وقد ترتب على ذلك أن تفرق أتباعه وأنصاره؛ كما هرب ابنه يحيى إلى خراسان[٨].

وعلى العموم، فقد تميز عهد هشام باشتعال الثورات في الولايات، وتفاقم الخطر الخارجي وتعددت جبهاته، وتوقفت الفتوح، ومع ذلك فقد حافظ على الفتوحات السابقة بفضل قواد عظام[٩].

ثم افضت الخلافة بعد هشام إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥ ـ ١٢٦ / ٧٤٣ ـ ٧٤٤ وكان مثل غيره من خلفاء بني أمية محباً للبادية وشغوفاً ببناء القصور العظيمة فيها[١٠]

(٨) عن هذه الثورة راجع: علي بن الحسين بن محمد المعروف بابي الفرج الأصفهاني ـ مقاتل الطالبيين، ص ٩٢ وما يلي: النجف ـ ١٣٥٣ هـ، محمد بن منيع بن سعد، كتاب الطبقات الكبرى، ج ٥، ٢٢٥، بيروت: دار صادر ـ دار بيروت، ١٣٧٧/١٩٥٧. ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٣٥ وما يلي، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٠٦ وما يلي. محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١٣٢ وما يلي، بيروت: دار صادر ـ دار بيروت. د. ت.

(٩) ماجد الدولة العربية، ص ٢٩٣.

(١٠) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٥٢٠، ٥٢٢. بيروت: مؤسسة الأعلمي، د. ت.

ولقد شابه الوليد أباه؛ فانصرف عن شؤون الملك إلى متعه وملاذه[11]، فكان يجمع في عواصم البادية، في شرقي الأردن، الندماء والشعراء والمغنين[12] كما أنه أحب الصيد واجاد الشعر والغناء[13] فيذكر ابن الأثير[14] أنه كان «يوقع بالعود ويضرب بالطبل والدف، وكان الغناء أحب إليه من كل لذة». وفيه يقول المسعودي: «هو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، واظهر الشرب والملاهي والعزف... وكان متهتكاً ماجناً خليعاً». لذلك عرف بخليع بني مروان[15] كما عرف والده يزيد بخليع بني أمية[16]. أضف إلى ذلك أنه كان يفرق بين زوجات أمراء بيته وأزواجهن ليتخذهن لنفسه، ونكح أمهات أولاد أبيه[17] وأنه حمل الكلاب وأراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، ولذلك كان عمه هشام يراه غير جدير بولاية العهد[18].

(١١) المسعودي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٥ وما يلي.
(١٢) ماجد، المرجع السابق، ص ٣٠٩.
(١٣) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٦٤. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٣٤.
(١٤) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٦٤.
(١٥) المسعودي، ج ٣، ص ٢١٣ - ٢١٦.
(١٦) ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص ١٣١.
(١٧) ابن الأثيرج ٤، ص ٢٦٤.
(١٨) الطبري: ج ٥، ص ٥٢٠ - ٥٢١. ابن واضح اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٣٣٣، بيروت: دار صادر - دابر بيروت، د. ت. الفخري، ص ١٣٤.

إلى جانب ذلك أظهر الوليد حباً في الانتقام والتشفي. فما أن ولي الخلافة حتى حجز أموال هشام بالرصافة، وأخذ سليمان بن هشام فضربه بالسياط، وحلق رأسه ولحيته وسجنه[19] وفي عهده قتل يحيى بن زيد بن علي، الذي فر إلى خراسان بعد قتل أبيه في العراق؛ فطارده عمال الوليد، وقتلوه وصلبوه بجوزجان في سنة ١٢٥ / ٧٤٣. وبقيت جثته إلى وقت ظهور العباسيين فأنزلوه ودفنوه وأقاموا له مشهداً[20]

إن هذه السياسة التي اعتمدها الوليد. جعلته يثقل على رعيته وجنده، وبصورة خاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم منذ أيام يزيد، وتقريبهم للقيسية، كما كرهه أفراد بيته، فثارت اليمانية لأول مرة ضد أحد الخلفاء الأمويين، وحرضوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه[21]، فاستولى يزيد على دمشق وأرسل جيشاً إلى الوليد الذي كان يقيم في البادية، وهاجموه في قصره فتوسل إليهم بخلع نفسه فقالوا له: ما ننقم عليك في أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك ما حرمه الله، وشرب الخمر، ونكاح

---

(١٩) ابن الأثير ج ٤، ص ٢٥٨، ٢٦٤.

(٢٠) الطبري، ج ٥، ص ٥٢٦ وما يلي، ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٥٩ - ٢٦٠، اليعقوبي ج ٢، ص ٣٣٣.

(٢١) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥.

أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله[٢٢] ثم تسوروا عليه وذبحوه في سنة ١٢٦ / ٧٤٤، وأتوا برأسه على رمح إلى دمشق وكانت دولته سنة وشهرين[٢٣].

بعد الوليد تسلم زمام الأمر يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف «بالناقص»، وسمي بهذا الاسم لأنه انقص أعطيات الجند، التي كان الوليد زادها[٢٤] واستهل حكمه بخطبة برر فيها قتله للوليد بن يزيد؛ وإنه ما فعل ذلك إلا غضباً لله ودينه[٢٥] وقد كان يزيد على خلاف الوليد ذا دين وورع، ويظهر النسك ويتواضع[٢٦] فهو برأي الشافعي والذهبي صاحب مذهب القدرية[٢٧]، أي الذي يقول بقدرة الإنسان في عمله وانه خالق الأفعال، وبالقدر خيره وشره، وهو نفسه مذهب المعتزلة حيث كانوا يلقبون أيضاً بالقدرية. فدعا الناس إلى القدر وحملهم عليه؛ مع ان مثل هذه الأقوال

---

(٢٢) السيوطي، الخلفاء، ص ٢٥٠.
(٢٣) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٥٩، شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، ص ٥٧، بيروت: الأعلمي، ١٩٨٥.
(٢٤) الفخري، ص ١٣٦، المسعودي، ج ٣، ص ٢٢١.
(٢٥) السيوطي، ص ٢٥٢.
(٢٦) الذهبي، المصدر السابق، الفخري، ص ١٣٦.
(٢٧) دول الإسلام، ص ٧٦.

حوربت في عهد هشام واعتبر معتنقوها من المجوس، لنفي العمل الإلهي أو ما عُرف بالجبرية[٢٨].

إلى جانب ذلك قامت في بلاد الشام فتنة مروعة بزعامة القيسية، وذلك بسبب تأييد يزيد لليمانية؛ مما اضطره إلى بذل الجهود لإخماد تلك الفتنة، وإعادة الهدوء إلى بلاد الشام والعراق[٢٩] ولم يتمتع هذا الخليفة بالحكم، بل مات من عامه ١٢٦/٧٤٤، فكانت خلافته حوالي ستة أشهر[٣٠].

لقد شهدت تلك الفترة أشد أنواع الفتن والاضطرابات، ولاحت في الأفق تباشير النهاية، فلما احتضر يزيد الناقص عهد بالأمر إلى أخيه إبراهيم، وبايعه الناس، فلما سمع بذلك مروان بن محمد نائب اذربيجان وتلك النواحي؛ سار في جيشه ودعا إلى نفسه، وقدم الشام فوقعت بينه وبين إبراهيم حروب ووقائع انتصر على أثرها مروان وهرب إبراهيم، لكنه سرعان ما عاد وخلع نفسه من الحكم وسلمه إلى مروان طائعاً، وعاش إبراهيم بعد ذلك إلى سنة ١٣٢ / ٧٥٠[٣١].

(٢٨) المسعودي، ج ٣، ص ٢١٢ وما يلي. الدولة العربية، ص ٣١٢.
(٢٩) ابن الأثير، ج ٤، ص٢٧٠ - ٢٧١.
(٣٠) السيوطي، ص ٢٥٧.
(٣١) دول الإسلام، ص ٧٧ وما يلي، السيوطي، ص ٢٥٤.

وأما بخصوص سياسة مروان بن محمد الذي استوثق له الأمر في سنة ١٢٧ ـ ١٣٢ / ٧٤٤ ـ ٧٥٠، فأول ما قام به أنه أمر بنبش يزيد الناقص، فاستخرجه من قبره، وصلبه لكونه قتل الوليد، ثم انه لم يهنأ بالخلافة، لكثرة من خرج عليه من كل جانب إلى سنة ١٣٢ / ٧٥٠[٣٢] فخرج عليه بنو العباس بقيادة أبي مسلم الخراساني صاحب الدولة، والذي اشعل الثورة في اقليم خراسان وهزم الجيوش الأموية. ثم تقدم الثوار حتى دخلوا أرض العراق، واحتلوا الكوفة، عندئذٍ ظهر أبو العباس السفاح وأعلن عن قيام الدولة العباسية[٣٣] ثم كلف عمه عبد الله بن علي بمطاردة مروان بن محمد الملقب «بالحمار»، فالتقى الجمعان على نهر الزاب الأعلى قرب الموصل، فدارت معركة رهيبة هُزم على أثرها مروان، وغرق كثير من جيشه، منهم إبراهيم بن الوليد المخلوع؛ عندئذٍ هرب مروان إلى دمشق، فلحق به عبد الله واستولى على المدينة بعد حصار شديد، وقتل فيها الوفاً كثيرة من الجند والأمراء، كما نبش قبور بني أمية[٣٤].

أما مروان فتابع طريقه إلى مصر فتبعه صالح أخو

---

(٣٢) السيوطي، ص ٢٥٥.

(٣٣) اليعقوبي، ص ٣٤٢ وما يلي.

(٣٤) ذول الإسلام، ص ٥٨٠ وما يلي.

عبدالله بن علي، وفي قرية بوصير بالأشمـونين مصر الـوسطى من سنة ١٣٢ / ٧٥٠، قطعت رأس مروان وهو نائم؛ بعد أن تعب من المطاردة. فلما حُملت الرأس بين يدي أبي العباس خر ساجداً[٣٥].

٢ ـ الأوضاع السياسية في العهد العباسي:

والملاحظ، ان أول ما يـذكر عبـد الله بن المبارك من الأحداث السياسية التي عاصرها هو قيام الدولة العباسية، وقد أمدنا صاحب تاريخ بغداد[٣٦] بحديث لابن المبارك نفسه فقال: ذاكرني عبد الله بن إدريس فقال: ابن كم أنت؟؟ فقلت: «إن العجم لا يكادون يحفظون ذلك، ولكن اذكر اني لبست السواد وأنا صغير عندما خرج أبو مسلم». قال: فقال لي: وقد ابتليت بلبس السواد؛ قلت: إني كنت أصغر من ذلك، كان أبو مسلم أخذ الناس كلهم بلبس السواد. الصغار والكبار.

وحقيقة الأمر؛ ان دولة بني العباس اتخذت السواد شعاراً لها حداداً على أهل البيت أو لأن راية الرسول ﷺ كانت سوداء

(٣٥) ابن الأثير، ج ٤، ص ٣٣٢، السيوطي، ص ٢٥٥.
(٣٦) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٠، ص ١٥٤، القاهرة: ١٣٤٩/١٩٣١.

أثناء فتح مكة، وكذلك عمامته كانت سوداء، وكانت راية علي بن أبي طالب في بعض حروبه سوداء أيضاً. وعمامة عبد الله بن عباس كان سوداء. كما وان اختيار اللون الأسود كان اختياراً موفقاً لأنه يوافق اللون الذي تذكره الملاحم والنبوءات على أنه لون الرايات القادمة من المشرق للقضاء على جور الأمويين وإدالة دولتهم. لذلك كان الأتباع العباسيون يسمون «بالمسودة» وكانت الدولة العباسية تسمى دولة المسودة[٣٧].

وتأكيداً لما ذكره ابن المبارك، فقد كان أبو مسلم الخراساني متشدداً في الزام الرعية بلبس السواد؛ حتى انه ليضرب عنق من يجادله في هذا الأمر وقد قيل، إنه قام رجل إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال له: «ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبدالله ان رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء. وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام اضرب عنقه[٣٨].

ومهما يكن من أمر؛ فإن ابن المبارك قد عايش الدولة العباسية عن كثب لأنه كان زمن قيامها في منتصف العقد

---

(٣٧) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ١٦١، بيروت، دار الأندلس، ١٩٧٠. قابل، ماجد، الدولة العربية، ص ٣٣٢.

(٣٨) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٠٨.

الثاني من عمره، ومقيماً في خراسان حيث اشعل أبو مسلم الخراساني الثورة كما ذكرنا واستطاع أن يهزم الوالي الأموي نصر بن سيار، وان يستولي على مدينة مرو عاصمة خراسان في سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ واضطر نصر بن سيار أن يفر هارباً إلى العراق تتبعه الجيوش العباسية، ولكنه مات في الطريق بنواحي الري في نفس السنة ١٣١ هـ / ٧٤٨[٣٩].

والواضح من سير الأحداث ان عبد الله بن المبارك لم يكن على صلة بالخلفاء الأوائل من بني العباس كالسفاح والمنصور والمهدي والهادي، وربما يعود ذلك إلى انهماكه في تحصيل علومه، أو لأن المصادر التي في حوزتنا؛ لم تتناول نشاطات ابن المبارك بالقدر الكافي الذي يبين أهميته بين أولئك الخلفاء، في حين اختلف هذا الأمر في عهد الخليفة هارون الرشيد، كما سنفصله في هذه الدراسة.

والجدير بالذكر؛ انه لما تحولت الخلافة إلى بني العباس نقلوا عاصمة ملكهم من دمشق عاصمة بني أمية إلى الكوفة، وذلك في عهد الخليفة أبي العباس السفاح ١٣٢ ـ ١٣٦ / ٧٥٠ ـ ٧٥٤، الذي عاد فانتقل إلى الأنبار شمالي الكوفة

---

(٣٩) ابن الأثير، ج ٤، ص ٣١٠، ٣١١، ٣١٣، ٣١٧.

على نهر الفرات، وبنى بجوارها مدينة لنفسه عرفت بهاشمية الأنبار(٤٠).

وقد عمل هذا الخليفة أثناء حكمه على إخماد الفتن والثورات التي قامت ضده في فلسطين والشام والجزيـرة الفراتية(٤١) واهتم كذلك بالجبهة الخارجية فوجه الجيوش بقيادة عمه عبد الله بن علي والي الشام لمحاربة البيزنطيين في مناطق الثغور في سنة ١٣٦ / ٧٥٤ ولكنه في أثناء الطريق وصله نبأ موت السفاح وقد أوصى بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور(٤٢). الذي عرف «بفحل بني العباس» لهيبته وشجاعته وحزمه، إضافة إلى أنه كان، جَمَّاعاً للمال، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب والفقه، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه(٤٣) وقد اعتبر المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية.

وكان أول من خرج على حكم المنصور، عمه عبد الله بن علي الذي زعم أن السفاح قد عهد إليه في حياته بالخلافة

---

(٤٠) علي بن الحسين الهاشمي الخطيب النجفي، تاريخ الأنبار، ص ٥١، بيروت: ١٩٧١.
(٤١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥٤، ٣٥٧.
(٤٢) الطبري، ج ٦، ص ١٢٢، ١٢٣.
(٤٣) السيوطي، ص ٢٥٩.

بعده، لما أرسله لقتال مروان بن محمد بالزاب. إذ أنـه حين أراد أن يوجه الجند إلى بني أمية دعا بني العباس، وقال: من انتدب منكم إلى مروان، فهو ولي عهدي[٤٤]. وانه على ذلك قاد عبد الله الجيوش لمحاربة مروان حتى هزمه. وبناء على هذا الاتفاق دعا عبد الله إلى نفسه فبايعه جيشه، وعسكر بدابق قرب حلب، فجهز المنصور لحربه صاحبي الدولة أبا مسلم الخراساني فالتقى الجيشان بنصيبين شمـال العراق وكانت وقعة هائلة فانكسر الشاميون في سنة ١٣٧ / ٧٥٤ وعلى رأسهم عبدالله الذي فر إلى أخيه سليمان والي البصرة، واختفى عنده مدة ثم سلمه إلى المنصور سنة ١٣٩ / ٧٥٦ بعد أن أخذ له أماناً من الخليفة[٤٥] ولكن المنصور سجنه ثم تخلص منه سنة ١٤٧ / ٧٦٤[٤٦].

ثم يأتي دور رجل آخر يرجع إليه الفضل في قيام الخلافة العباسية، هو أبو مسلم الخراساني الذي تحدى جبروت المنصور، وأعلن عصيانه على حكمه بعـدما أرسـل إليه الخليفة رسولاً ليحصي عليه الغنائم التي غنمها في الحرب

---

(٤٤) الطبري، ج ٦، ص ١٢٣.

(٤٥) الطبري، ج ٦، ص ١٢٣ وما يلي، دول الإسلام، ص ٨٤، الفخري، ص ١٦٧ وما يلي.

(٤٦) الطبري، ج ٦، ص ٢٦٩ وما يلي.

مع عمه عبد الله بن علي، فعظم ذلك على أبي مسلم وقال: «أمين على الدماء خائن في الأموال»، وعـزم على خلع المنصور وسار بجيشه يريد خراسان فراسله المنصور يستعطفه ويعتذر إليه. فما زال يتحيل عليه حتى انخدع أبو مسلم وذهب للقائه بمدينة المدائن فأصدر حكمه عليه بالموت وقُطع إرباً إرباً ولف في بساط وأُلقي رأسه إلى أصحابه خارج القصر، وذلك في ٢٥ من شعبان سنة ١٣٧ / ٧٥٥ شباط فتخلص المنصور بذلك من أكبر خطر مباشر على الدولة باعتراف الخليفة نفسه إذ قال لابن أخيه عيسى بن موسى «والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه. وهل كان لكم ملك في حياته»[٤٧].

ولقد كان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين، وكانوا قبل ذلك أمراً واحداً[٤٨] وقد كان هذا الشقاق في البيت النبوي داعياً إلى ظهور جدل بين الفرعين العباسي والعلوي؛ لبيان أحقية كل منهما. وسرعان ما تطور ذلك إلى صراع مسلح بين أبناء العمومة، فظهر محمد النفس

---

(٤٧) الطبري، ج ٦، ص ١٣٠ وما يلي، دول الإسلام، ص ٨٤ ـ ٨٥، الفخري، ١٦٨ وما يلي.

(٤٨) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، ص ٢٢ ـ ٢٣، بيروت: دار الكتاب ١٩٦٢ السيوطي، ص ٢٦١.

الزكية بالمدينة ودعا إلى نفسه. ثم ارتقى منبر النبي ﷺ وذكر أنه خرج غضباً لله فبايعه بالخلافة عامة أهل المدينة(٤٩) وحتى ان الإمام مالك بن أنس لما استفتي في حركته، افتى في الخروج مع محمد ونقض بيعة أبي جعفر، وقال: «بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين» فكان ذلك من أسباب إسراع الناس إلى محمد(٥٠).

والملاحظ أن الإمام مالك على الرغم من إجلال العباسيين له، لم يكن راضياً عن حكم أبي جعفر، وكان يرى أن محمداً النفس الزكية يتمتع بصفات عالية تؤهله لتولي خلافة المسلمين ولقد أصبحت حركة محمد في غاية الخطورة على أبي جعفر بعد أن استولى على مكة واليمن ومحاولته الاستيلاء على الشام، ثم تلى ذلك ان جاءته بيعة أهل خراسان ومصر(٥١).

وفي أول الأمر فكر أبو جعفر في أن يشخص إلى محمد بنفسه، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يترك العراق، فأرسل نحوه ولي عهده.عيسى بن موسى، وهو ابن أخيه، فسار في أربعة آلاف فارس، فاقتحم المدينة وهزم الثوار ثم انه قتل محمداً وبعث

---

(٤٩) الطبري، ج ٦، ص ١٨٤ وما يلي.
(٥٠) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٩٠، الفخري، ص ١٦٦.
(٥١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

بـرأسه إلى المنصـور في ١٤ رمضـان من سنـة ١٤٥/شبـاط ٧٦٣[٥٢].

وبعد شهر خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فاستولى على البصرة واتخذ أهلها زي البياض، وهو شعار آل علي. وقد ساعد إبراهيم على ذلك، ان البصرة كانت دائماً أموية، كما أيده فيها جماعة كبيرة من العلماء والفقهاء، على رأسهم الإمام وأبو حنيفة الذي راسله سراً، فهو الآخر مثل مالك لم يكن يرى في أبي جعفر غير طاغية[٥٣].

وقد هيأ لإبراهيم أخذه البصرة السيطرة على المناطق المجاورة مثل: واسط والأهواز وفارس وكرمان؛ فلما بلغ المنصور خبر خروج إبراهيم خاف ووجل واشتد قلقه ونزل الكوفة وألزم الناس بلبس السواد، وجعل يقتل كل من يتهمه، فكان يأخذ الناس بزيهم؛ وبقي المنصور لا يقر ولا ينام وحوله مائة سيف كامنة للثورة[٥٤].

---

(٥٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٧٦، دول الإسلام، ص ٨٧ ـ ٨٨، الفخري، ص ١٦٥.

(٥٣) الطبري، ج ٦، ص ٢٥١ وما يلي، الخطيب البغدادي، ج ١٣، ص ١٢٩، الفخري، ص ١٦٧، السيوطي، ص ٢٦١.

(٥٤) الذهبي، دول الإسلام، ص ٨٨ وما يلي.

وعلى الفور جهز المنصور خمسة آلاف فارس بقيادة عيسى بن موسى، ومعه القائد حميد بن قحطبة، وكانت الموقعة الفاصلة في باخمرا، فاستظهر أصحاب إبراهيم أول الأمر إلى أن جاء سهم في حلق إبراهيم فانزله أصحابه واحاطوا به ولكن حميد بن قحطبة حمل عليه وحز رأسه، فحملت على رمح إلى المنصور الذي خر ساجداً(٥٥).

إضافة إلى ذلك فقد وجد في خزائن المنصور، بعد موته، جماعة من قتلى الطالبيين في آذانهم رقاع، فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال وشباب وشيوخ(٥٦). كما قتل بعض أئمة الزيدية. فكان المنصور مع بني الحسن، لا يقل في نظر الشيعة عما فعله يزيد بن معاوية بالحسين وآله في كربلاء(٥٧).

ومهما يكن من أمر، فإنه بعد هذه الانتصارات التي حققها المنصور على عمه عبد الله، وعلى أبي مسلم الخراساني، واطاحته بثورة العلويين، وجد نفسه يستحق لقب المنصور بالله، وبعد ذلك شرع في اكمال مشروع بناء عاصمته

---

(٥٥) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٣٧٨، دول الإسلام، ص ٨٩.

(٥٦) الطبري، ج ٦، ص ٣٤٤.

(٥٧) عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ج ١ ص ٨٧، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩.

الجديدة المسماة بغداد، التي بدأ في بنائها سنة ١٤١ / ٧٥٨، ثم توقف عن ذلك في أيام ثورة النفس الزكية وأخيه إبراهيم عام ١٤٥ / ٧٦٢، وانتهى من العمل في عام ١٤٩ / ٧٦٦[٥٨] بعد ذلك تفرغ لتنظيم الدولة، ومجاهدة الروم.

وبعد حكم امتد إلى اثنتين وعشرين سنة مات المنصور وهو محرم بظاهر مكة وله ثلاث وستون سنة، وقد أوصى بولاية العهد من بعده لابنه المهدي الذي تسلم زمام الأمر عام ١٥٨ / ٧٧٥[٥٩].

ويعتبر عصر المهدي متمماً لعهد أبيه؛ في إرساء نظم الدولة العباسية فقد استكمل بناء الرصافة أو بغداد الشرقية، حتى اصبحت العاصمة في عهده[٦٠].

أضف إلى ذلك أن المهدي اعتمد سياسة لينة؛ لأنه جاء إلى الحكم والبلاد منهوكة القوى من كثرة ما أريق فيها من دماء، فكان الناس كما وصفهم المنصور في وصيته لابنه المهدي: إني تركت الناس ثلاثة أصناف: فقيراً لا يرجو إلا غناءً وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا

---

(٥٨) الطبري، ج ٦ ٢٣٨.
(٥٩) الفخري، ص ١٧٤.
(٦٠) الطبري، ج ٦، ص ٣٦٨، ٣٧٢.

منك[٦١]، ثم أوصاه بالمال والسلطان وقال له: قد جمعت لك من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور[٦٢].

وبالفعل فقد طبق المهدي بنود هذه الوصية، فأول ما عمله أنه رد معظم الأموال التي صودرت على عهد أبيه إلى أصحابها، كذلك اطلق سراح المسجونين السياسيين ولا سيما العلويين منهم، وأمر لهم بصلات وأرزاق[٦٣] لذلك عمل المهدي على استرضاء أهل الحجاز الذين سبق أن عاملهم المنصور بكل شدة وعنف لتأيدهم ثورة محمد النفس الزكية. فحينما حج سنة ١٦٠ / ٧٧٦ وزع على أهل الحجاز أموالاً طائلة، وأعاد إليهم الغلال والحبوب الواردة من مصر والشام. وكان المنصور قد قطعها عنهم خلال ثورة محمد[٦٤].

وعمل المهدي على اكتساب مودة أهل الشام، فزارهم في بلادهم ونزل دمشق والقدس ووزع عليهم الأموال. وحرص

(٦١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٩٥.
(٦٢) الطبري، ج٦، ص ٣٤٢.
(٦٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٣.
(٦٤) المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٢٥، ٣٦٦، دول الإسلام، ص ٩٧.

على إقامة العدل بين الناس، فقد افتتح عهده بالنظر في المظالم، فكان يجلس مع القضاة في بغداد عند النظر في العرائض والشكاوى المقدمة من قبل الرعية[٦٥] وادخل دواوين جديدة مثل ديوان الأزمة[٦٦]. لمراجعة الحسابات المالية، واهتم بالبريد بين بغداد وجُرجان عند بحر قزوين، وبين بغداد والمدينة واليمن في جزيرة العرب، ولم يكن ذلك من قبل[٦٧] فكان هذا يعني فتح الطرق للتجارة وازدهار العمران[٦٨].

واشتهر المهدي بملاحقة الزنادقة أو الهراطقة في الدين، لهذا أنشأ ديواناً جدياً سماه «ديوان الزنادقة» وقد خول له المهدي سلطات واسعة منها الحكم بالإعدام على كل من يدان بهذه التهمة. كذلك كان للزنادقة سجن خاص سمي «بسجن الزنادقة»[٦٩].

تجدر الإشارة هنا، إلى أن تهمة الزندقة لم تقتصر على

(٦٥) المسعودي، ج ٣، ص ٣١٢، الفخري، ص ١٧٩.
(٦٦) ابن الأثير، ج ٥، ص ٦٢، الطبري، ج ٦، ص ٣٧٣، السيوطي ٢٧٣.
(٦٧) الطبري، ج ٦، ص ١٨٨.
(٦٨) ماجد، العصر العباسي، ج ١، ص ١٥٣.
(٦٩) الطبري، ج ٦، ص ٣٩١، اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص ٢٤ الفخري ص ١٧٩.

اتباع الديانات والأفكار الالحادية القديمة، بل صارت تطلق أيضاً على أصحاب النزعات التحررية ضد التقاليد القديمة، وقد انتشرت هذه النزعة في أوساط المثقفين بصفة خاصة. كذلك اطلقت على الماجنين المستهترين لإفراطهم في شرب الخمر والمجون. كذلك القيت هذه التهمة في بعض الأحيان على الأشخاص غير المرغوب فيهم سياسياً كوسيلة للانتقام أو التخلص منهم. وكانت النتيجة أن قتل كثير من الناس ظلماً تحت ستار الزندقة.

والملاحظ: ان المهدي عمد إلى التقرب من العلويين لهذا لم يثوروا في عهده، لأنهم شعروا بالأمان بعد مصالحتهم مع السلطة الحاكمة، والإقلاع عن ملاحقتهم، واستردادهم بعض حقوقهم.

كذلك اهتم الخليفة بتوجيه الحملات ضد البزنطيين. ولم يكتف بذلك بل قرر أن يقود إحدى هذه الحملات بنفسه سنة ١٦٥ / ٧٨٢ مصطحباً معه ابنه هارون الذي تسلم قيادة الجيش بعد عودة والده المهدي إلى بغداد، وواصل هارون زحفه مخترقاً آسيا الصغرى، ومدمراً حصون البيزنطيين فيها حتى بلغ مضيق البسفور فاستحق أن يحمل لقب «الرشيد»(٧٠).

(٧٠) الطبري، ج ٦، ص ٣٧٩ - ٨٠.

وبعد حكم دام عشر سنوات (١٥٨ ـ ١٦٩ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥) مات المهدي تاركاً ولاية العهد من بعده إلى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد على التوالي.

بويع موسى الهادي بالخلافة بعد أبيه بعهد منه، فأقام فيها حوالي سنة تقريباً(٧١) ولعل أهم ما حدث في عهده هو ثورة العلويين في الحجاز سنة ١٦٩ / ٧٨٦ بزعامة الحسين بن علي الحسني الذي سيطر على المدينة وجلس في مسجد الرسول ﷺ يأخذ البيعة لنفسه. ولكن الجيوش العباسية هزمته في وادي اسمه فتح بالقرب من مكة، فقطعت رأسه وحُملت إلى الهادي، الذي أرسلها بدوره إلى خراسان؛ لتخويف الشيعة فيها. وبعد ذلك أمر بحرق بيوت العلويين في المدينة، وصادر أموالهم، وحبس كثيراً من العلويين، وهم بضرب أعناقهم وإغراقهم؛ لولا موته الفجائي(٧٢).

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة بعد أخيه الهادي ١٧٠ / ٧٨٦، قلد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة، وكان يناديه يا ابتِ وفوض إليه السلطة المطلقة. وكان هو وابناه جعفر

---

(٧١) دول الإسلام، ص ١٠١، السيوطي، ٢٧٩.

(٧٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٤٠٤ ـ ٥، الطبري ج ٦، ص ٤١٠ وما المسعودي ج ٣، ص ٣٢٦ ـ ٢٧، الفخري، ١٩٠ ـ ٩٢.

والفضل هم الذين تولوا شؤون الدولة من سنة ١٧٠ / ٧٨٦ إلى ١٨٧ / ٨٠٣[٧٣].

وكانت قصور البرامكة إلى الجانب الشرقي من بغداد وعاشوا في سعة ونعمة ورخاء. وقد أصابوا جاهاً عظيماً وغنى فاحشاً بحيث نثروا من العطاء في مواليهم واتباعهم وشعرائهم ما جعل المعدمْ منهم غنياً. ومُدحوا بما لم يمدح به الخليفة وضربت بكرمهم الأمثال[٧٤].

وقد حاز جعفر البرمكي شهرة واسعة لقوة بيانه وأدبه وحسن كلامه وخطه. إلى جانب ذلك كان كثير الدّالة على الرشيد بحيث كان أبوه يحيى ينهاه عن منادمته، ويأمره بترك الأنس به حتى أعيت حيلته فيه[٧٥].

ثم تغير قلب الرشيد على البرامكة واستنكر استبداد تلك الاسرة في شؤون الدولة، وتطلع فإذا هم يشركونه في سلطانه بحيث أخذ يشعر أنه لم يعد له معهم تصرف في أمور ملكه[٧٦]. وزاد الطين بلة، ذاك الصراع الخفي الذي كان

---

(٧٣) المسعودي، ج ٣، ص ٣٣٧.

(٧٤) ابن عبدوس الجهشياري، الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، ص ١٨٩، القاهرة: ١٩٣٨، الفخري، ص ١٩٧ وما يلي.

(٧٥) الجهشياري، المصدر السابق، ص ١٨٩، ٢٠٤، ٢٢٤.

(٧٦) الفخري، ص ٢٠٩.

قائماً بين حزبي العرب والعجم؛ فالأول يضم زبيدة زوج الرشيد والحاجب الفضل بن الربيع وولي العهد محمد الأمين بن الخليفة هارون الرشيد. والثاني ويتزعمه البرامكة وعبد الله المأمون بن الرشيد. إن هذه التطورات التي استجدت على الساحة، إضافة إلى أسباب أخرى ذكرتها المصادر التاريخية، دفعت بالخليفة إلى نكبة البرامكة(٧٧). فعندما قفل الرشيد من الحج في سنة ١٨٧/٨٠٣، أمر بجعفر أن يُقتل، ليعلق رأسه على الجسر المركزي ببغداد، ويقطع جسمه نصفين يعرض كل منهما على واحد من الجسرين الآخرين. أما أبوه واخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم(٧٨) ثم إن الرشيد نقل مقره، بعد نكبة البرامكة، إلى الرقة على الفرات(٧٩).

ولم يخل عهد الرشيد من ثورات تعاقبت في داخل الامبراطورية. ففي الشام اندلعت نار الخصومة القديمة، شديدة حامية، بين عرب الشمال وعرب الجنوب (القيسية واليمانية)، سنة ١٨٠ / ٧٩٦. وفي دمشق اغتنمت السوقة

(٧٧) الطبري، ج ٦، ص ٤٨٢ وما يلي، المسعودي، ج ٣، ص ٣٦٨ وما يلي، الجهشياري، ص ٢٥٤.
(٧٨) اليعقوبي، تاريخ، ص ٤٢١، الفخري، ص ٢١٠.
(٧٩) الذهبي، دول الإسلام، ص ١٠٦.

فرصة الاضطرابات للأمعان في أعمال النهب والسلب. ولم يستتب الأمن في تلك الديار إلا بعد أن خرج جعفر بنفسه إليها. وأمر بتجريد السكان جميعاً، من السلاح[٨٠].

وأما بالنسبة لسياسة الرشيد تجاه ابناء عمومته من الحسنيين والحسينيين. فكان متشدداً معهم، وطالما وضع العراقيل أمام طموحاتهم؛ محاولاً إفشال مشاريعهم الاستقلالية، والدليل على ذلك محاولاته التي قام بها في المغرب الأقصى، حينما وفد إليها إدريس بن عبد الله في سنة ١٧٠ / ٧٨٦، أخو النفس الزكية، الذي كان قد قاتل مع حفيده الحسين بن علي في وقعة فخ، في أيام الهادي، فقد تستر إدريس بعد فشل ثورة الحسين، وانتقل إلى مصر ثم إلى المغرب الأقصى وأنشأ دولة علوية في سنة ١٧٢ / ٧٨٩ عُرفت بدولة الأدارسة نسبة إلى إدريس الذي مات مسموماً بتحريض من الرشيد وذلك في عام ١٧٥ / ٧٩١[٨١].

وكان يحيى بن عبد الله قد فر إلى بلاد الديلم بعد فشل وقعة فخ، فاجتمع إليه الناس من الأمصار وبايعوه وسموه بالمهدي.

---

(٨٠) الطبري، ج ٦، ص ٤٦٦ وما يلي.
(٨١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤١٦ وما يلي.

فاغتم الرشيد لذلك وندب إليه الفضل بن يحيى البرمكي في سنة ١٧٦ / ٧٩٢، في خمسين ألفاً وولاه جرجان وطبرستان ليحارب منهما يحيى والديلم. ولكن يحيى مال إلى الصلح وطلب أماناً بخط الرشيد وأن يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم، فأجابه الخليفة إلى ذلك فقدم يحيى على الرشيد فأحسن استقباله أول الأمر، ولكن بعد ذلك، تملك من الأمان، ووضعه في السجن مكبلاً بالحديد، ثم أمر بقتله[٨٢].

وكذلك هو الحال بالنسبة للإمام موسى الكاظم[٨٣] الذي مات في حبس الرشيد بملاحظة المؤرخين[٨٤]، فذكروا انه لما حج الرشيد في سنة ١٨٣ / ٧٩٩، أمر بالقبض على موسى بن جعفر، وحمله في قبة إلى بغداد، فحبسه عند السندي بن شاهك، وأمره بقتله، فقتل قتلاً خفيفاً.

من جهة أخرى استمر النضال ضد البيزنطيين طوال عهد الرشيد، الذي أجبر الأمبراطور نقفور بعد فتح هرقلة سنة

---

(٨٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٥٠ وما يلي، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤٠٨ وما يلي.

(٨٣) هو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٨٤) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤١٤ وما يلي، الفخري، ص ١٩٦.

١٩٠/٨٠٦، على التعهد بأداء جزيـة للمسلمين[٨٥]، وكـان ثمة في خراسان أيضاً اضطراب متصل. حتى إذا ثار رافع بن الليث في سمرقند، سنة ١٨٩ / ٨٠٥، وبسط سلطانه على بلاد ما وراء النهر كلها، اضطر الخليفة إلى أن يسير بنفسه إلى مقاتلته. ولكن الأجل لم يمهله، فما كاد يبلغ طوس ـ مشهد الحالية في شمال شرق ايران ـ حتى مرض ومات في سنة ١٩٣ / ٨٠٩[٨٦] بعد أن قضى في الحكم أكثر من ثلاث وعشرين سنة، اعتبرت العصر الذهبي في القرن العباسي الأول[٨٧].

---

(٨٥) الطبري، ج ٦، ص ٥٠٩ وما يلي، دول الإسلام، ص ٢٠٧.
(٨٦) الطبري، ج ٦، ص ٥٢٥، دول الإسلام، ص ١٠٨.
(٨٧) ماجد العصر العباسي الأول، ج ١، ص ٢٩٢.

١ ـ الحالة الاجتماعية في العهد الأموي:

لقد عايش عبد الله بن المبارك العصرين الأموي والعباسي، كما ذكرنا ولكنه، خلال العصر الأول، كان بعيداً عن دمشق، عاصمة بني أمية، إلى جانب ذلك، كان صغير السن لم يدرك بعد الانهيار الكبير الذي أصاب المجتمع المترف والمتمثل بحياة البلاط حيث خُصصت ليالي الخلفاء لمجالس الأنس والسمر والتي لم تخل من الشراب والغناء.

ولم نستبعد بعض ما يقال عن المجتمع الأموي بعد أن تبين لنا ان هشام بن عبد الملك الذي يعد من كبار خلفاء العصر الأموي ـ المرواني ـ كان قد اعتاد الشراب أيام الجمعة بعد الصلاة. وله اسوة في ذلك بمن سبقه إلى الحكم من أهل بيته، فكان أخوه الوليد، فيما رووا، يشرب يوماً ويترك يوماً. في حين كان أبوه عبد الملك يشرب في كل شهر مرة حتى لا يعقل أين هو(٨٨). غير ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك بز الجميع في الشراب وقد حُكي عنه أنه اتخذ بركة

(٨٨) أبو عثمان الجاحظ، كتاب التاج في أخلاق الملوك، نشره أحمد زكي باشا، ص ١٥١، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٤.

في قصره، فكان يملأها خمراً ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويعب منها[٨٩].

ولم يكتف الخلفاء بالشراب بل استهواهم الغناء والموسيقى أيضاً وبعض ضروب الرقص. فإذا كان الخليفة ممن لا يريد أن يشهر عنه ذلك جعل ستارة بينه وبين الندماء. أما الوليد الثاني فلم يتحاش عن الرفث والمجون بحضرة هؤلاء[٩٠].

ولقد كان خلفاء بني أمية أول من سنوا الملاهي واستجلبوا المغنين إلى الشام وجعلوا يقيمون الحفلات الكبرى في البلاط[٩١]. وشمل عبد الملك برعايته ابن مِسْجَح من مغني الحجاز. واستقدم الوليد بن عبد الملك ابن سُريج ومعبداً إلى العاصمة دمشق واحتفى بهما. ثم اعاد يزيد الثاني الشعر والموسيقى إلى سابق عهدهما بعد أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد حال دونهما. وقد عول يزيد على مواهب حبابة وسلامة[٩٢] واصطفى هشام حنيناً الميري وأنعم عليه.

(٨٩) شمس الدين النواجي، حلبة الكميت، ص ٩٨، القاهرة: مطبعة إدارة الوطن، ١٢٩٩ هـ.
(٩٠) الجاحظ، المصدر السابق، ص ٣٢.
(٩١) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج ١٦، ص ٧٠، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧، المسعودي، ج ٣، ص ٦٧.
(٩٢) المسعودي، ج ٣، ص ١٩٦ وما يلي.

واستقبل الوليد الثاني في بلاطه عدداً من أرباب الموسيقى والغناء منهم معبد المشهور وابن عائشة، وطويس، ودحمان[٩٣] ووافقت خلافته زمن ازدهار الموسيقى في مكة والمدينة[٩٤]. فلم يصل آخر العصر الأموي حتى كان حب الغناء قد سرى بين الخاصة والعامة فاتخذ العباسيون ذلك الأمر سلاحاً ضد خصومهم الأمويين.

٢ ـ الحالة الاجتماعية في العهد العباسي:

لا يعني ما ذكرناه آنفاً ان المجتمع العباسي كان في منأى عن تلك الحياة اللاهية العابثة التي عرفها البلاط الأموي ومن خلفه الطبقة المترفة، وإنما الحقيقة تقال؛ إن الحياة الراقية تتمثل في أبهى صورها في مدينة بغداد عاصمة العباسيين التي احتلت المقام الأول في الثروة وأصبحت منافسة لبيزنطة، حتى قيل إنه: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم اقطارها وسعة اطرادها وكثرة دورها

(٩٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢١٣.
(٩٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين، ٦٦٠، ص ٢٧ وما يلي، القاهرة مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٨/١٩٤٩.

ومنازلها ودروبها وشعوبها ومحالها واسواقها وسككها وازقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها وخاناتها»[٩٥].

وكان البلاط العباسي وما فيه من دور للحريم وللخصيان ولأهل الخاصة يبلغ ثلث المدينة المدورة. وبلغت الابهة غايتها في عصر الخليفة هارون الرشيد وزوجته السيدة زبيدة التي كانت تشارك الخليفة المجد والعظمة، فلم تكن تقتني من آنية المائدة غير المصنوع من الذهب والفضة والمرصع بالجوهر. وصنع لها الرفيع من الوشي، حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر، حتى تشبهت نساء الطبقة المترفة بها[٩٦].

وبلغ شغف زبيدة بالجواهر واليواقيت والانفاق عليها حتى أسرفت في ذلك، فذكر البيروني مثلاً، إنه كان لها سبحة من

(٩٥) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ١١٩.
(٩٦) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص ٢٦ ـ ٢٧، المسعودي، ج ٤، ص ٢٢٦.

يـواقيت رمانيـة كالبنـادق، وكان شـراؤهـا بخمسين ألف دينار[٩٧].

وقيل إنها اشترت لحفيدها عبد الله بن الأمين قضيباً من زمرد قدر ذراع، وعلى رأسه طائر من ياقوت أحمر، وذلك بأربعة وثمانين ألف دينار ليلعب به يوم إعذاره[٩٨].

كما اتخذت زبيدة الجواهر لتجميل احذيتها، وبلغ من إعجابها بالدر انها أمرت أن يتخذ ثياباً لوصائفها من الدر المثقوب بالتصليب[٩٩] وكانت عُلية أخت الرشيد قد رصعت غطاء رأسها بالجواهر النفسية[١٠٠].

وتذكر المصادر ان خزائن الرشيد زخرت بالمصاغ والدر وأنواع الخواتم، فكان مما وجد عنده من الجوهر النفيس، الدرة اليتيمة، وسميت بهذا الاسم لأنه لم يوجد لها نظير، وقد حملها إلى الرشيد مسلم بن عبد الله العراقي[١٠١] فباعها

---

(٩٧) أبو الريحان البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٥٨، ١٥٦ حيدر آباد: الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٥ هـ.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١٠٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ١٧٢.

(١٠١) كان يجهز الغاصة إلى طلب اللؤلؤ في خلافة هارون الرشيد، راجع القاضي ابن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، ص ١٧٧، الكويت: دائرة المطبوعات، ١٩٥٩.

لـه بتسعين ألف دينار(١٠٢) وذكـر أن وزنهـا كـان ثـلاثـة مثاقيل(١٠٣) واشترى الرشيد ياقـوتة حمـراء كبيرة الحجم بأربعين ألف دينار(١٠٤) ونقش عليها اسمه، قيل: كانت تضيء بالليل كضياء المصباح إذا وضعت في بيت لا مصباح فيه(١٠٥) وقد بلغ إسراف الخليفة حتى إنه كان ينثر الجواهر على جواريه ويوزعها عليهن بغير حساب(١٠٦).

ويلاحظ استفحال البذخ في البلاط العباسي بنوع خاص في الاحتفالات الرسمية كتنصيب الخليفة وأعراس الأسرة الحاكمة ومراكب الحج وغير ذلك.

ولقد كان يوم زفاف زبيدة للرشيد مشهوراً في تاريـخ المجتمع البغدادي، حتى ان بغداد كلها كـانت في يوم عرس، وقد اصرت الخيزران زوجة المهدي وأم الرشيد على

---

(١٠٢) علاء الدين الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج ٢، ص ١٣٧، القاهرة: مطبعة إدارة الوطن، ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ. وقيل: انه اشتراها بسبعين ألف دينار، الذخائر والتحف، ص ١٧٧.

(١٠٣) البيروني، المصدر السابق، ص ١٥٢، الجاحظ، التبصر بالتجارة، نشره حسن عبد الوهاب، ص ١٠، دمشق: ١٩٣٢، الفخري، ص ٢٦٠.

(١٠٤) البيروني، الجواهر، ص ١٦٥.

(١٠٥) المسعودي، مروج، ج ٤، ص ٨٣.

(١٠٦) البيروني، ص ٥٨.

أن يتم الزفاف في مهرجانات فخمة تقوم لها بغداد وتقعد، وبالفعل فقد أقام المهدي وليمة لم يسبقه إليها أحد. ثم دعيت الناس من الآفاق ليشهدوا ليلة من العمر ولتشملهم العطايا(١٠٧).

وفي ليلة الزفاف التي أقيمت في قصر الخلد، على ضفاف دجلة في عام ١٦٥ / ٧٨١، ارتدت زبيدة العروس الفاتنة قميصاً كله من الدر، مما لم ير مثله، ولم يقدر أحد على تقويمه بثمن لنفاسته، والبست بدنة(١٠٨) عبدة امرأة هشام بن عبد الملك وزينت بالحلى حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجوهر(١٠٩) ووهب الناس أواني الذهب مملوءة بالفضة مملوءة بالذهب، ثم فرق عليهم نوافج المسك وقطع العنبر وقوارير الطيب وخلع الوشي حتى بلغت النفقة خمسين ألف ألف درهم سوى ما أنفقه الرشيد من ماله الخاص(١١٠).

وفي عهد الرشيد، وهو خير من يمثل ابهة الملك في الخلافة العباسية، كان البلاط موئل الشعراء وأرباب

(١٠٧) أبو الحسن الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ص ١٥٦ - ٥٧، ط ٢، بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦٦.

(١٠٨) هو ثوب كله من ذهب لا يدخل فيه من الغزل سوى أوقيتين، وينسج سائره بالذهب.

(١٠٩) الشابشتي، المصدر السابق، ص ١٥٦.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ١٥٧. البيروني، ص ١٥٢، ابن الزبير، ص ٩١ - ٩٢.

الموسيقى والغناء وسواهم من السمار والندماء وأصحاب اللهو وغيرهم من الفقهاء والقراء والقضاة والكتاب، حتى أصبح القصر مركزاً لمختلف الثقافات وضروب اللهو[١١١].

وكان في مقدمة المطربين والمغنين إبراهيم الموصلي وسياط وابن جامع وإسحاق الموصلي، ولقد وصف أبو نواس حياة البلاط في هذا العصر الذهبي باعذب الشعر ويفيض كتاب الأغاني بالقصص التي تمثل هذه الحياة الاجتماعية إلى حد كبير.

والحقيقة تقال، إنه لم يكن هارون الرشيد أول خلفاء بني العباس الذين كان لهم رأي وشغف بالغناء، فحسب رواية الجاحظ[١١٢] كان أبو العباس السفاح في أول أيامه يحيي مجالس الغناء ويظهر للندماء، ثم احتجب، فصار يسمع الغناء من وراء الستار. في حين كان أبو جعفر المنصور متقشفاً لا يسمع الغناء على العزف ولا يسمح بان يُضرب ويغنى في قصره[١١٣].

وقال صاحب الفخري[١١٤]: «لم يكن يُرى في دار

---

(١١١) الفخري، ص ١٩٥ ـ ٩٦.

(١١٢) كتاب التاج، ص٣٣.

(١١٣) الطبري، ج ٦، ص ١٥٨.

(١١٤) الفخري، ص ١٥٩.

المنصور لهوٌ ولعبٌ أو ما يشبه اللهو واللعب». ولكن صاحب كتاب التاج[115] يشير إلى أن المنصور كان يسمع الغناء من وراء الستار.

وكان المهدي بن المنصور يسمع الغناء في خلافته، ضمن حدود الوقار والحشمة واضعاً بينه وبين المغنين حجاباً وستراً، ثم ظهر لهم[116]. وكان الخليفة الهادي مولعاً بالغناء شديد التأثر به، فكان إذا استخفه الطرب قفز من مكانه وبدأ بالصراخ والرقص وتمزيق ملابسه طرباً[117]. وكان معطاءً فقال المغني إسحاق بن إبراهيم الموصلي: «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة[118].

وبلغ فن الغناء في بلاط الرشيد، وذلك رجع إلى نشأته في قصر أبيه المهدي، وتأثره بتلك النزعة الفنية، فأصبح الميل إلى السماع واللهو عنصراً من العناصر الأصيلة في حياته على الرغم من إشفاق أبيه من بعض تبعات ذلك، ومقاومته بعض مظاهر هذا الميل منه، وتحريمه على إبراهيم

---

(١١٥) التاج، ص ٣٤.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(١١٧) المصدر نفسه، ص ٣٦، الأغاني، ج ١، ص ٢٨٤ وما يلي وج ٥، ص ١٨٤.

(١١٨) الأغاني، ج ٥، ص ١٤٩.

الموصلي أن يدخل عليه، لأن الموصلي كان مشغوفاً بالنبيذ مسرفاً في شربه.

وبالفعل فقد شربت الخمرة سراً وعلناً. ويظهر من قصص الدعابة والمجون[119] وأشعار الخمريات[120] ان تحريم الخمر الذي شدد عليه الإسلام لم يلاق نجاحاً ملموساً. حتى الخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة فإنه قد كان منهم من شرب الخمر ولم يعبأ بشيء، وتزايد الطلب على الشعراء والمغنين والموسيقيين فاتخذهم علية القوم ندماء لهم.

ولقد عاقر الخمرة خلفاء بني العباس كالهادي وهارون الرشيد وكذلك الأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. أما المنصور فقد منع شربها[121] وقد دافع ابن خلدون عن الرشيد والمأمون وزعم أن شرابهما إنما كان نبيذ التمر الذي لم يكن محظوراً عند أهل العراق[122].

وكانت تعقد لمعاقرة الخمرة والغناء حلقات أنس تسمى مجالس الشراب[123] فكان صاحب الدار وضيوفه يعطرون

---

(١١٩) في الأغاني وفي ألف ليلة وليلة.

(١٢٠) راجع ديوان النواسي.

(١٢١) الطبري، ج ٦، ص ٣٢٨.

(١٢٢) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص ١٦، القاهرة: المكتبة التجارية، د. ت.

(١٢٣) النواجي، حلية الكميت، ص ٣٨.

لحاهم بالمسك أو ماء الورد، ويرتدون ثياب المنادمة. وإذا ما اكتمل المجلس خرجت الجواري منهن المنادمات ومنهن المغنيات وتحضرن معتق الشراب. وهكذا يلتئم شمل المجلس بالقيان والأنغام والندامى. وقد علت أصواتهم بالفكاهات والندر، وتدور بأيدي السقاة كؤوس البلور ويتراشق بعضهم بالتحايا. بينما تتضوع في أرجاء الغرفة رائحة الند والعنبر في المجامر(١٢٤).

والملاحظ، ان أكثر القيان اللواتي يحضرن مثل هذه المجالس كن من بنات الغواية حتى قيل «إنه لم يبتل فتيان ذلك العصر ببلية أعظم منهن»(١٢٥). وهناك وصف لبيت من بيوت اللهو في الكوفة أيام المنصور تغني فيه سلامة الزرقاء يكاد يكون صورة مختصرة لحياة مجتمع الخاصة المتهتك(١٢٦) أما عامة الناس فكان من يرغب في الخمرة منهم يطلبها في الأديرة وفي الحانات(١٢٧).

إلى جانب ذلك لوحظ، سقوط مستوى الآداب الجنسية

---

(١٢٤) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، ج١، ص ٣٦٢ وما يلي، بيروت: دار صادر، ١٩٧١.

(١٢٥) الأغاني، ج ١١، ص ٩٨ - ٩ وج ١٨، ص ١٨٢ وما يلي.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٨ وما يلي.

(١٢٧) الشابشتي، ص ١٠٧، ٢٠٥ وفي قصص عديدة.

وكثرة الانغماس في الملذات[١٢٨] وتميز المجتمع بتعدد الـزوجات وازديـاد التسري وتجـارة الرقيق[١٢٩]، فـأضاع العنصر العربي مكانته وحل محله عنصر جديد من أبناء الأعاجم وانصاف العرب وأبناء الإماء المعتقات.

إن هذه الحياة الماجنة والمشحونة بالخلاعة والبذخ والترف والعطاء وسعة العيش، كانت مقتصرة على طبقة الخاصة بما فيها من الخلفـاء وأهـل البـلاط والحـاشيـة والأمـراء والـوزراء وكبار رجالات الدولة، ويضاف إليهم كبار التجار والشعراء والمغنين والأطباء وغيرهم من أغنياء الطبقة الوسطى الذين حاولوا التشبـه بالخـاصة من النـاس وهؤلاء جميعاً أحيوا المجالس الحالمة بما فيها من شراب وغناء وطرب. وغيرها من مظاهر الابهة والترف.

وكان بجانب هذه الفئة القليلة، السواد الأعظم من أبناء الشعب والذين سماهم الجاحظ بالعوام والحشوة، وجعلهم كصف مقابل للمياسير وأهل الثروة[١٣٠]. فهؤلاء الفقراء رتعوا

(١٢٨) ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص ٧١، القاهرة: مطبعة التـقـدم، ١٣١٩هـ.

(١٢٩) الجاحظ، رسالة في القيان، تحقيق يوشع فنكل، ص ٧٠ ـ ٧٣، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٣ هـ.

(١٣٠) الجاحظ، البخلاء، ص ٧٠، ط ٢، دمشق: دار اليقظة العربية ١٩٦٣.

في بؤسهم يعانون الفاقة والعوز، ولم يتسرب إليهم قليل ولا كثير من ذلك الثراء الفاحش الذي كانت تبذره أيدي الطبقة الحاكمة وما دونها بلا حسيب ولا رقيب، ولم تتمتع بشيء من الترف والنعمة التي كان يتقلب فيها الأغنياء.

وفي الأخبار المبعثرة عن هذه الفئة، نجد أفرادها يتوغلون في أسواق بغداد بحثا عن الرزق، عن طريق الأعمال الدنيا والخدمة، فيختلطون بالتجار والأغنياء ويتنافرون أمام مواكب العظماء، وفيهم العامل والحمال والصياد والبائع المتجول، كما فيهم المحتال والماكر واللص والساحر والطفيلي إلى آخر ما نجد في بعض كتب الأدب والتاريخ وغيرها.

والملاحظ، ان المهن الدنيا التي كان يمارسها هؤلاء القوم لم تكن لتساعدهم على العيش الكريم، ولم تردعنهم شبح الفقر وألم الجوع. لهذا كان بعضهم يلجأ إلى شتى الوسائل للتخلص من الفقر، كالتسول ورهن المتاع واعتراض المواكب.

روى المسعودي في مروج الذهب[١٣١]، ان محمد بن سليمان الزيني والي البصرة في عهد الخليفة هارون الرشيد كانت غلته في كل يوم مائة ألف درهم، فكان يركب يوماً بالبصرة

---

(١٣١) ج ٣، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

وسوار القاضي يسايره، فاعترضه رجل وقال له: «يا محمد أمن العدل أن تكون غـلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟. ثم التفت إلى القاضي فقال: إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به» فاسرع إليه غلمان محمد، فكفهم عنه وأمر له بمائة درهم.

أما هذا التفاوت الكبير بين طبقات المجتمع البغدادي حيث الأغنياء وكبار التجار يعيشون في القصور المسرفة بأناقتها. ورهط من العلماء والحرفيين وصغار الباعة يسكنون في أحياء فقيرة، ولا يجدون ما يأكلون إلا أن يتصل أحدهم بخليفة أو أمير فيدر عليه الرزق وإن لم يستعن بأحد مات من الجوع، الأمر الذي دفع بعض الناس إلى الرجوع إلى الدين وممارسة الزهد.

ولقد رضي هذا الفريق بالحياة الوادعة البسيطة وزهدوا في التقرب من السلطان لأنه لا يخلصهم من حالة الضيق التي يمرون فيها، وإنما رأوا أن تقربهم إليه لا يخلو من المخاطر والمذلة وقد عبر أحدهم عن هذه الحالة عندما قيل له: «لم لا تتقرب بأدبك إلى السلطان؟ قال: لأنني رأيته يعطي عشرة آلاف من غير شيء ويرمي من السـور من غير شيء ولا أدري أي الرجلين أكون...»(١٣٢).

---

(١٣٢) شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، ج ١، ص ١١٠، القاهرة: بولاق، ١٢٩٢ هـ.

ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك فئة قد اختارت طريق الزهد لأنه إيمان نابع من الذات الإنسانية التواقة للخير والمحبة والجمال، وهو من فيض القلوب العامرة بالإيمان ونكران الذات، ويتجلى في اسمى معانيه عندما يضحي الإنسان بأشياء غير مرغم على أن يضحي بها، إنما يختار ذلك بملء إرادته فيقاوم هذه المادة الجارفة وينقي نفسه بالتنفير في الدنيا والترغيب في الآخرة.

والحقيقة تقال: إن عبد الله بن المبارك كان من رجالات هذه الفئة الصالحة التي ضمت كبار الفقهاء الزاهدين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، ولقد كانت أهمية هذا الرجل بين ابناء الأمة أعظم من مكانة جبار بني العباس الخليفة هارون الرشيد، وقد ظهر هذا الأمر جلياً عندما وفد الرجلان إلى الرقة(١٣٣).

إلى جانب ذلك، كان لبعض أئمة هذه الفئة مواقف نبيلة أمام الخلفاء، أدوا فيها حق النصيحة بجرأة أدبية متناهية، فوعظوهم وخوفوهم من مغبة أعمالهم، وأحيوا فيهم روح العدل والانصاف والتسامح، وحثوهم على المحافظة على أموال المسلمين لأنها أمانة في أعناقهم.

ولقد برز من هؤلاءالأئمة الأعلام، الإمام الاوزاعي والإمام

---

(٢٣٣) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٦.

سفيان الثوري في عهد المنصور؛ وصالح بن عبد الجليل في أيام المهدي، والفضيل بن عياض وابن السماك وسفيان بن عينيه في عهد الرشيد.

وتجدر الإشارة إلى أنه تميزت تلك الفترة من القرن الثاني للهجرة الثامن / للميلاد بكثرة الاتجاهات السياسية والحركات الفكرية، وظهر فيها اشهر ائمة المذاهب الإسلامية ومجتهديها، وكثرت الأقوال في الفقه الإسلامي. وأخذت المدارس الفقهية تتبين مناهجها، فكان للشيعة مذهبهم الخاص الذي يعتمد على الآراء التي يحكم بها الأئمة المعصومون من ذرية علي بن أبي طالب، وفي هذه الحقبة التي نحن بصدد الحديث عنها، كان الإمام جعفر الصادق هو مصدر الفقه عند الشيعة، فكان أفضل الناس وأعلمهم بدين الله بملاحظة اليعقوبي[١٣٤]، وكان أهل العلم الذين سمعوا عنه، إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم[١٣٥]. ولقد ظهر منهج الإمام الصادق على لسانه عندما كان يحدث أصحابه، فقال سفيان الثوري: سمعت جعفراً يقول: «... إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فدعوه». وقد نعاه المنصور يوم توفي

(١٣٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٨١.
(١٣٥) المصدر نفسه ونفس الجزء والصفحة.

بالمدينة سنة ١٤٨ / ٧٦٥ فقال: «مات سيد بني هاشم وعالمهم وبقية الأخيار منهم»[١٣٦].

كذلك كان لفرقة الزيدية مدرسة فقهية لها آراؤها في الإمامة وولاية الحكم في الأمة الإسلامية، وهي تنتسب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين الذي قتل في سنة ١٢٢ / ٧٤٠. والملاحظ ان هذه الفرقة قادت معظم الخروجات العلوية في العصر العباسي الأول.

إلى جانب ذلك ظهر مذهب أهل الرأي وغلب على العراق وعلى رأسه الإمام أبو حنيفة (ت ١٥٠ / ٧٦٧) ومذهب أهل الحديث، وغلب على المدينة وعلى رأسه الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ / ٧٩٥). أما الشام فغلب عليه مذهب الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧ / ٧٧٤). ثم ظهرت مدرسة ثالثة توسطت بين العراق المتساهل والمدينة المحافظة ودعت إلى سبيل الاعتدال قائلة بلزوم القياس مع بعض التحفظ وهي المدرسة الشافعية التي أسسها الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ / ٨٢٠) وكان آخر المذاهب السنية الأربعة المذهب الحنبلي نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ / ٨٥٥) تلميذ الشافعي وأحد أصحاب الحديث المحافظين.

---

(١٣٦) المصدر نفسه.

الفصل الثاني

١ ـ مولد عبد الله بن المبارك ونشأته

٢ ـ أهميته العلمية

٣ ـ امامته

٤ ـ مكانته في الفقه.

١ ـ مولد عبد الله بن المبارك ونشأته:

هو عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن المروزي، مولى بني حنظلة، ولد بمرو، أشهر مدن خراسان، سنة ١١٨ هـ / ٧٢٦ م[١] من أم خوارزمية وأب تركي، وكان عبد الله يشبه والده تمام الشبه، فحدث هو عن ذلك فقال: نظر أبو حنيفة إلى أبي فقال: «أدت أمه إليك الأمانة»[٢]. وقد أصبح عبدالله فيما بعد، سيداً من سادات المسلمين[٣]. فجمع الله فيه معظم خصال الخير[٤] جمع العلم والفقه، والأدب والنحو واللغة والزهد والشجاعة، والشعر والفصاحة، وقيام الليل والعبادة، والحج والغزو والفروسية، وترك الكلام فيما لا

(١) شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق احسان عباس)، ج ٣، ص ٣٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٧، الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٢.

(٢) الخطيب البغدادي، ج ٣، ص ١٥٣.

(٣) الذهبي تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٥، حيدر آباد؛ الدكن، مطبعة دائرة المعارف، ١٣٣٣ هـ.

(٤) الشيخ عبد الرؤوف المنادي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تصحيح محمود حسن ربيع، ج ١ ص ١٣٢، القاهرة: مطبعة الأنوار، ١٩٣٨.

يعنيه، والإنصاف وقلة الخلاف على أصحابه[٥]. وقبل البحث في هذه الأمور يجدر بنا أن نتناول بداية حياة هذا الرجل.

نشأ عبدالله بن المبارك بمرو، مسقط رأسه، وتربى بها في أسرة صالحة ورعة دينة[٦]. وقد كان في أول نشأته يتردد على الكتاب يتلقى فيه مبادىء العلم، فبدت عليه ملامح الذكاء، وسرعة الحفظ منذ نعومة أظفاره، وذلك بشهادة أحد أقرانه الذين عايشوه، فقال: كنا غلماناً في الكتاب فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فخطب خطبة طويلة، فلما فرغ منها قال لي ابن المبارك: قد حفظتها. فسمعه رجل من القوم فقال: هاتها، فاعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها[٧].

والملاحظ، ان ابن المبارك قد انقطع عن التعلم في فترة الشباب، وانغمس في حياة اللهو والعبث، وهدر الوقت في الموسيقى والغناء. نستشف ذلك من خلال ما رواه ابن المبارك لأبي حنيفة عندما سأله عن بدء أمره فقال له: كنت

---

(٥) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٤.

(٦) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢، عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ١، ص ٢٩٦، القاهرة مكتبة القدس، ١٣٥٠.

(٧) الخطيب البغدادي، ج ١ ص ١٦٥.

جالساً مع إخواني في البستان، فأكلنا وشربنا إلى الليل. وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور[8]، ونمت سحراً فرأيت في منامي طائراً فوق رأسي على شجرة يقول: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق» قلت: بلى، فانتبهت وكسرت عودي وحرقت ما كان عندي، فكان هذا أول زهدي[9] وهكذا تاب ابن المبارك وعاد إلى اصالته واشتغل بتحصيل العلم والعمل به.

(٨) الطنبور: هو آلة من آلات النفخ، تشبه القيثارة.

(٩) أبو الحسنات اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تصحيح محمد الغساني، ص ٢٠٣، القاهرة: جمالي وخانجي، ١٣٢٤ هـ.

٢ ـ أهميته العلمية:

لم يكن في زمان ابن المبارك أحد أطلب للعلم منه، لهذا رحل إلى اليمن وإلى مصر والشام والبصرة والكوفة[١٠]. واستقى العلم من شيوخ عصره امثال: هشام بن عروة، وسليمان الأعمش، وحميد الطويل، وعبد الله بن عون، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريج، وابن أبي ذئب، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وشعبة. والأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم من الأئمة الأعلام[١١] فكان ينضم إلى حلقاتهم، ويأخذ من علمهم، ويذكرهم بالخير معترفاً بفضل بعضهم عليه. فقال؛ «لولا أن الله تعالى أعانني بأبي

---

(١٠) قال ابن أيبك الصفدي، إن ابن المبارك «طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، ورحل سنة ٧٥٨/١٤١ ولقي التابعين، وأكثر الترحال والتطواف إلى الغاية في طلب العلم والجهاد والحج والتجارة». الوافي بالوفيات، باعتناء دوروتيا كرانولسكي، ج ١٧، ص ٤١٩، بيروت: دار الأندلس، ١٤٠١/١٩٨١.

عبد الرحمن بن إدريس بن أبي حاتم، تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، ص ٢٦٣، حيدرآباد: الدكن، مطبعة دائرة المعارف، ١٣٧١/١٩٥٢.

(١١) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ١٥٢.

حنيفة، وسفيان الثوري كنت كسائر الناس» ثم اضاف مظهراً براعة سفيان وعلو قدره فقال: كتبت عن ألف وماية شيخ ما فيهم أفضل من سفيان»[١٢]. وكان يقول: كنت أقعد إلى سفيان الثوري فيحدث، فأقول: ما بقي من علمه شيء إلا وقد سمعته، ثم اقعد عنده مجلساً آخر فيحدث فاقول: ما سمعت من علمه شيئاً[١٣].

إلى جانب ذلك كان ابن المبارك يأتي استاذه الثوري كلما أعيته مسألة فيجلس بين يديه ويسائله، فيجده كمن يغترف من بحر[١٤]. فهذه سيرة ابن المبارك مع أحد شيوخه ولا بد أن تكون له مواقف مشابهة مع بقية من أخذ عنهم، وكلها تظهر مدى شغفه ومواظبته على التحصيل حتى غدا من كبار جامعي العلم في زمانه. والأكثر من ذلك إننا لا نكاد نجد علماً من العلوم المنتشرة في ذلك الوقت إلا ونراه قد بلغ فيه الذروة وأصبح مرجعاً يُرجع إليه الباحثون في ذلك العلم، فقد كان دائرة معارف واسعة وموسوعة علمية ضخمة[١٥] لهذا

(١٢) محيى الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تصحيح شركة العلماء، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٩١.

(١٣) ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ص ١١٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(١٥) محمد عثمان جمال، عبد الله بن المبارك، ص ٦٠، دمشق ـ بيروت: (دار القلم) ١٣٩١/١٩٧١.

قال فيه أبو داود الطيالسي: «ما رأيت أجمع من عبد الله بن المبارك»[١٦]. فقد كان محدثاً فقيهاً أديباً شاعراً لغوياً فصيحاً فارساً عابداً تاجراً... فكان يقصده أصحابه فيجدون عنده ما لا يجدونه عند غيره، وقد أشار المعتمر بن سليمان إلى ذلك فقال: «ما رأيت مثل ابن المبارك نصيب عنده الشيء الذي لا نصيبه عند أحد»[١٧] بعد ذلك تهافت الناس لأخذ العلم عن ابن المبارك الذي ذاع صيته، واتسعت حلقته وكثر تلاميذه، فحدث عنه: سفيان بن عيينة، وأبو إسحاق الفزاري، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن وهب، ويحيى بن آدم، وعبد الرزاق بن همام، وأبو سامة، ويحيى بن معين وغيرهم[١٨] ونظراً لاهميته العلمية كان كثيراً ما يجتمع أصحابه وتلاميذه يعددون أنواع العلوم التي يتقنها، ويذكرون خصال الخير التي وضعها الله فيه [١٩] فقال النسائي في وصفه: «لا نعلم في عصر ابن المبارك أجل من ابن

---

(١٦) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ص.

(١٧) أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٨، ص ١٦٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠/١٩٨٠.

(١٨) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ١٥٢.

(١٩) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٤.

المبارك، ولا أعلم منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة فيه»[٢٠] وقال ابن عياش: «ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك»[٢١] وقال شعيب بن حرب: «ما لقي ابن المبارك رجلاً إلا وابن المبارك أفضل منه»[٢٢] وهو إضافة إلى ذلك منارة علم، وقدوة لأبناء عصره. قال العمري: ما رأيت في دهرنا هذا رجلاً يصلح لهذا الأمر إلا رجلاً أتاني إلى منزلي، فأقام عندي ثلاثاً يسألني عن غير ما يسألني عنه أهل هذا الدهر، فصيح اللسان، إلا أن اللغة شرقية يكنى أبا عبد الرحمن، فقال من حضر: هذا عبد الله بن المبارك. فقال: هكذا ينبغي، إن كان معي أحد يصلح لهذا الأمر فذاك، يعني الاقتداء بالعلم[٢٣].

وحدث عبد الرحمن بن جميل قال: كنا حول ابن المبارك بمكة فقلنا له: يا عالم المشرق حدثنا. وكان سفيان قريب منا فسمع، فقال: ويحكم عالم المشرق والمغرب وما بينهما[٢٤]. وكان سفيان الثوري يذكر دائماً فضل هذا الرجل

---

(٢٠) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٣٧٨ حيدر آباد: الدكن، مطبعة دائرة المعارف، ١٣٢٥ - ١٣٢٧.

(٢١) الخطيب البغدادي، ج ١٠،ص ١٥٧.

(٢٢) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨٤.

(٢٣) أبو نعيم، حلية، ج ٢، ص ١٦٢.

(٢٤) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٦.

ويلفت نظر الناس إلى علمه الغزير، فاتفق إن جاءه رجل يسأله عن مسألة فقال له سفيان: من أين أنت: قال: من أهل المشرق. قال: أوليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا محمد؟ قال: عبد الله بن المبارك. قال؛ وهو أعلم أهل المشرق؟! قال: نعم. وأهل المغرب(٢٥).

وهذا كله يثبت أن ابن المبارك بلغ من العلم ما لم يبلغه غيره حتى انتهت إليه الرياسة واستحق عن كثب لقب امير المؤمنين، وهذا أكبر لقب عرفه المحدثون(٢٦) قال أبو أسامة: «ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس»(٢٧) كذلك اعترف إبراهيم الحربي بمكانته العلمية فعندما سئل: «إذا اختلف أصحاب معمر فالقول قول من؟ قال: القول قول ابن المبارك»(٢٨).

وهذه الحقيقة الثابتة جعلت علي بن المديني يقول: انتهى العلم إلى رجلين: إلى عبد الله بن المبارك، ثم من بعده إلى يحيى بن معين. وكان يقول أيضاً: عبد الله بن المبارك هو أوسع علماً من عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن

---

(٢٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٦٢.

(٢٦) محمد عثمان جمال، المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢٧) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٦.

(٢٨) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٦٥.

آدم. وكان يحيى بن معين الذي انتهى إليه العلم بعد ابن المبارك إذا ذكر أصحاب سفيان الثوري يقول هم خمسة ويبدأ بابن المبارك[٢٩].

بعد عرض آراء الأئمة في عبد الله بن المبارك، من المناسب معرفة موقف طلابه منه، وهم خلق لا يحصون، وقد أمدنا ابن أبي حاتم[٣٠] بموقف لأسلم بن سليمان وهو أحد الطلاب الذين كانوا يقصدون ابن المبارك من البلدان البعيدة، يستفيدون من علمه، ويتأدبون بأدبه الرفيع، فنجده يرحل من نيسابور إلى مرو تاركاً وارءه زوجته الباكية وصبيته الصغار، ويسير نحو ابن المبارك يقطع المسافات الطويلة ويتحمل مشقات السفر بغية الاستفادة من عالم الأمة، ثم يقف بين يديه شارحاً وصفه بهذه الأبيات:

خلفت عرسي يوم السير باكية
يا ابن المبارك تبكيني برناتِ
خلفتها سحراً في النوم لم أرها
ففي فؤادي منها شبه كياتِ
أهلي وعرسي وصبياني رفضتهم
وسرت نحوك في تلك المفازاتِ

---

(٢٩) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٦٤.
(٣٠) تقدمه الجرح والتعديل، ص ٧٥.

أخـاف ـ واللهِ ـ قـطاع الـطريـق بهـا
ومـا أمـنـت بـهـا من لـدغ حـيـاتِ

ومن المفيد أن نذكر أن ابن المبارك لم يكن عالماً بالأمور الدينية فحسب، وإنما تعددت اختصاصاته، وكثرت مؤلفاته، والتي وجدنا لائحة باسمائها في كتاب الفهرست لابن النديم[٣١] وهي تضم: كتاب السنن في الفقه، وكتاب التفسير، وكتاب التاريخ، وكتاب الزهد، وكتاب البر والصلة.

لهذا كله تهافت طلاب العلم على حلقات ابن المبارك، وتفاخروا في ارتياد مجالسه العامرة بشتى علوم عصره.

---

(٣١) محمد بن إسحاق النديم، الفهرست، ص ٣١٩، بيروت: دار المعرفة، د. ت.

٣ ـ إمامته:

أجمع العلماء على قبول عبد الله بن المبارك والاعتراف بجلالته وإمامته وعدله[٣١] فهو في رأيهم رجل صالح، ثقة، يستحق أن يحمل لقب امام المسلمين، في حين يرى أبو إسحاق الفزاري انه «امام المسلمين أجمعين»[٣٢] لهذا لم يأنف من الجلوس بين يديه للاستفادة من علمه، وحدث المسيب بن واضح، قال: «رأيت أبا إسحاق الفزاري بين يدي ابن المبارك قاعداً يسائله»[٣٣] مع العلم أن أبا إسحاق كان أكبر من ابن المبارك بعشرين سنة.

إضافة إلى ذلك كان ابن المبارك أحد الأئمة الأربعة المعترف بهم، قال عبد الرحمن بن مهدي: «الأئمة أربعة سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد، وابن المبارك»[٣٤]. وقد بلغ من ثقتهم به أنهم اتهموا كل من يغمز

(٣٢) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٣، ابن أبي حاتم، ص ٢٦٥.

(٣٣) ابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ٣٨٦.

(٣٤) ابن أبي حاتم، ص ١٦٥، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٤، النووي، تهذيب الأسماء، ج ١، ص ٢٨٥، أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، ص ٩٤، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.

ابن المبارك بشيء، وشكوا في دين من ينتقص منه شيئاً، وهذا قلما اتفق لأحد غيره، يقول اسود بن سالم: «كان ابن المبارك إماماً يقتدى به، كان من أثبت الناس في السنة. إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام»[٣٥].

وهذا يعني أنهم وجدوا في ابن المبارك الإمام القدوة، والمرجع الصالح، والرجل القادر الذي لا غبار عليه ولا تداخله شبهة في دينه، وكل من يرى فيه غير ذلك هو دخيل على الإسلام. فابن المبارك في نظر معاصريه هو المعيار الصحيح لكل مسلم صادق في اعتقاده.

والملاحظ أن ابن المبارك كان الشغل الشاغل لأهل زمانه فكانوا يسعون لتثبيت اعتقادهم فيه، وذلك عن طريق مقارنته ومفاضلته مع غيره من العلماء، فعندما قدم عبد الرحمن بن مهدي بغداد، اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: جالست سفيان الثوري وسمعت منه، وسمعت من عبد الله، فأيهما أرجح؟ فقال: ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر[٣٦]. ثم اردف قائلاً: ما

(٣٥) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٨، النووي، ج ١، ص ٣٨٥.
(٣٦) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦١.

رأت عيناي مثل سفيان. ولا أقدم على عبد الله بن المبارك أحداً[٣٧].

وسأل رجل يحيى بن معين أيهما أثبت عبد الرزاق أو عبد الله بن المبارك. وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال: كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن أهل قربته، ثم قال: تضم عبد الرزاق إلى عبد الله؟![٣٨]

ونظراً لأهمية ابن المبارك بين العلماء، كان إذا وقع خلاف فيما بينهم لجأوا إليه لحسم الأمر وإصدار حكمه فيه، وليس هذا بغريب ما دام هو في نظرهم الطبيب في علم الحديث. قال فضالة التونسي: «كنت أجالس أصحاب الحديث بالكوفة، وكانوا إذا تشاجروا في حديث قالوا: مروا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله يعنون عبد الله بن المبارك»[٣٩].

---

(٣٧) أبو نعيم الأصبهاني، ج ٨، ص ١٦٣.
(٣٨) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٥.
(٣٩) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٥٦.

٤ ـ مكانته في الفقه:

تشير كتب التراجم والطبقات وكـذلك بعض المصادر التاريخية إلى أن ابن المبارك كان من كبار فقهاء عصره، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست بين فقهاء المحدثين[٤٠]. فكما كان محدثاً من الطراز الأول كان فقيهاً من الطراز الأول كذلك[٤١]. وبلغ من سمو مكانته في الفقه أنه أصبح فقيه العرب بعد استاذه سفيان الثوري.

حدث محمد بن المعتمر بن سليمان قال: قلت لأبي: يا أبت من فقيه العرب؟ قال: سفيان الثوري. فلما مات سفيان قلت: يـا أبت من فقيـه العـرب؟ قـال: عبـد الله بن المبارك[٤٢].

ولقد شهد أقران ابن المبارك بمكانته في الفقه، فهو في نظرهم فقيه أهل المشرق والمغرب. قال عبد الله بن سنان: «قدم ابن المبارك مكة وأنا بها، فلما خرج فشيعه سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه، فقال أحدهما: هذا فقيه

---

(٤٠) ص ٣١٩.

(٤١) محمد عثمان جمال، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٤٢) ابن أبي حاتم، ص ٢٦٠، أبو نعيم، ج ٨، ص ١٦٣.

أهل المشرق، فقال الآخر: وفقيه أهل المغرب[٤٣] فهذه شهادة رجلين صالحين يشهدان بها وهما في المسجد الحرام، وهما من أخبر الناس بابن المبارك وبفقهه.

وكان ينظر البعض إلى الرجل على انه أفقه الناس جميعاً في ذلك العصر، قال إبراهيم بن شماس: رأيت أفقه الناس، وأورع الناس، وأحفظ الناس، فأما أفقه الناس فعبد الله بن المبارك، وأما أورع الناس ففضيل بن عياض، وأما أحفظ الناس فوكيع بن الجراح[٤٤].

وبلغ من علو منزلة ابن المبارك، ورفعة شأنه، أنه لم يوجد له منتقص، قال أبو عمر: لا أعلم أحداً من الفقهاء وسلم أن يقال فيه شيء إلا عبد الله بن المبارك[٤٥]، فهذا قليل من كثير مما قيل في ابن المبارك وفقهه، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مقدرة هذا الرجل في علوم الفقه، الأمر الذي جعل أقرانه يتسابقون إلى ذكر الأقوال التي تليق به وبمكانته العلمية.

---

(٤٣) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٦.

(٤٤) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٤.

(٤٥) عبد القادر ابن أبي الوفا، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ج ١، ص ٢٨٢، حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف، ١٣٢٢هـ. وفي آخره ذيل الجواهر المضية.

الفصل الثالث

١ ـ عبادته وتقواه .
٢ ـ ابن المبارك وزهده .
٣ ـ ورعه وتواضعه وحسن ادبه .
٤ ـ موقفه من أهل البدع .

عبادته وتقواه:

كان ابن المبارك رجلاً ديناً يكثر من الصلاة، وذكر الله، وتلاوة القرآن بقلب خاشع وعين باكية وكان دائم الحج[1]، حتى قيل فيه: إنه كان اليف الحج والقرآن[2].

حدث علي بن الحسين قال: لم أر أحداً من الناس اقرأ من ابن المبارك، ولا أحسن قراءة ولا أكثر صلاة منه كان يصلي الليل كله في السفر وغيره، وكان يرتل القرآن، وإنما ترك النوم في المحمل (الهودج) لأنه كان يصلي وكان الناس لا يدرون[3]. وكان إذا صلى العصر أتى مسجد المصيصة، فاستقبل القبلة بذكر الله ولم يكلم احداً حتى تغرب الشمس[4].

وكان يمضي الليل بطوله وهو يرتل آية واحدة من القرآن الكريم ليتفهم معانيها ويدرك مداها. قال له رجل: قرأت

---

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٩٦.
(٢) المناوي، الصوفية، ج ١، ص ١٣١.
(٣) ابن أبي حاتم، تقدمة الجرح والتعديل، ص ٢٦٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكن أعرف رجلاً لم يزل البارحة يكرر «ألهاكم التكاثر»[٥] إلى الصبح، ما قدر أن يتجاوزها[٦] إلى جانب ذلك أمضى عمره صائماً في تكتم شديد: قال قطن بن سعيد: «ما أفطر ابن المبارك قط ولا رئي صائماً قط»[٧].

وكان سخي الدمعة شديد الخوف من يوم الحساب، فعن نعيم بن حماد قال: «كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق[٨] يصير كأنه ثور منحور أو بقرة منحورة من البكاء، لا يجترىء أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلا دفعه[٩].

وبشهادة أصحاب ابن المبارك انه ما بلغ هذه المنزلة الرفيعة إلا بخشيته الشديدة لله عز وجل. والرواية التالية تؤكد حقيقة هذا الأمر.

قال القاسم بن محمد: كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيراً ما كان يخطر ببالي فاقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنا

---

(٥) سورة التكاثر، آية ١.
(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤط وحسن الأسد وغيرهما، ج ٦، ص ٢٥١ بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠١/١٩٨٩.
(٧) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٨، ص ١٦٧.
(٨) من تأليف عبد الله بن المبارك.
(٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ١٦٧.

نصلي، وإن كان يصوم إنا نصوم وإن كان يغزو فإنا نغزو، وإن كان يحج إنا نحج، فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفىء السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: «بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا». ولعله حين فقد السراج وصار في الظلمة ذكر القيامة[١٠].

(١٠) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ١٢١، حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٦ هـ.

٢ ـ ابن المبارك وزهده:

كان ابن المبارك إماماً فقيهاً زاهداً وقد شهدت بذلك معظم المصادر التي تناولت سيرة هذا العالم الفذ الذي قيل عنه في تذكرة الحفاظ[١١] إنه «قدوة الزاهدين» واتفق الذهبي[١٢] وابن العماد الحنبلي[١٣] على نعته «بالفقيه الحافظ الزاهد» وقال فيه الخطيب البغدادي:[١٤] «كان ابن المبارك من المذكورين بالزهد».

ولقد أدرك ابن المبارك أهمية الزهد بعد أن خاض غمار ذلك المعترك وعرف ما له من سلطان على الناس، وكان له رأيه الخاص في ذلك، فكان يقول: «سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية، لان سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا، والزاهد ينفر من الناس فيتبعوه»[١٥]. وقال أيضاً:

---

(١١) الذهبي، ج ١، ص ٥٣.

(١٢) العبر في خبر من عبر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، ج ١، ص ٢٨٠ الكويت: دائرة المطبوعات (التراث العربي ٥١)، ١٩٦٠.

(١٣) شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٩٥.

(١٤) تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ١٥٢.

(١٥) عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، الطبقات الكبرى المسماة بواقع الأنوار في=

إذا هـرب الزاهـد من الناس فـاطلبـه، وإذا طلبهم فـاهـرب منه[١٦].

وكـان لابن المبارك تصنيفـه الخـاص لـطبقـات المجتمـع، فجعل كل جماعة في مكانها الحقيقي، فالملك الحق، هو الزاهد الذي يملك زمام نفسه، والذي يسخر دينه من أجل التكسب فهو من السفلة، قال الفضيل بن عياض: سئل ابن المبارك من الناس؟ قال: العلماء، قال: فمن الملوك: قال: الزهاد، قال: فمن السفلـة؟ قال: الذي يأكل بدينه[١٧] فهذه هي الأسس التي اعتنقها ابن المبارك، وبها شق طريقه ليكون نموذجاً للسائرين خلفه في حياة الزهد.

ومن الواضح ان ابن المبارك، نظر إلى الزهد بمنظار جديد، فعرفه على حقيقته التي يجب أن يعرف بها، فنفذ إلى لبه وعرف جوهره، فرفض الفكرة القائلة بأن الزهد هو

= طبقات الأخيار، ج ١، ص ٦٥، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.

(١٦) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهـر الآداب وثمرة الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، ج ٢، ص ٨١، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢/١٩٥٣.

(١٧) ابن الجـوزي، صفة الصفـوة، ج ٤، ص ١١٥، المناوي، تـراجم الصوفية، ج ١، ص ١٣٢.

رفض الدنيا، واعتزال الناس، واعتماد على هبات المحسنين والمتصدقين، والانقطاع للعبادة. وإنما الزهد في نظره جد وعمل ومكابدة الحياة بالعمل الشريف ليكتسب منه المال الحلال وينفقه في سبيل الله وفي مساعدة المحتاجين والأيتام وابناء السبيل. وليس ليكنزه في الصناديق، انطلاقاً من هذا المبدأ عمل ابن المبارك بالتجارة اسوة برسول الله ﷺ الذي تاجر واكتسب وانفق وهوّ أزهد الزاهدين. وقد سار على نهجه الصحابة الشرفاء والتابعين وتابعي التابعين ومنهم ابن المبارك الذي عمل بهذه الحرفة وجمع المال الكثير وانفقه في وجهه الصحيح فكان قدوة لغيره ومضرب المثل بالزهد والكد والعطاء.

روي انه كان لابن المبارك رأس مال نحو أربعماية ألف، يدور يتجر في البلدان فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنة مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم، وربما أنفق من رأس ماله[١٨]، فابن المبارك في زهده هذا ينطبق عليه ما ذكره علي بن أبي طالب إذ قال: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو

(١٨) عماد الدين أبو الفداء بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٠، ص ١٧٧، ط ٤، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠١/١٩٨١.

زاهد. ولو انه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد[١٩].

والواضح ان تجارة ابن المبارك وكسبه المال لم يكن لغاية في نفسه ولا ليشتري به لذات الدنيا ومتاعها وإنما أراده ليصون به شرفه ويحفظ كرامته من أن تذل على أبواب الحكام والسلاطين وأصحاب الجاه، فكان يرى أن البعد عن الظلمة وصون ماء الوجه لا يكون إلا لمن ملك من الكفاية المالية ما يسد به حاجته للترفع عن ذل السؤال، ولذلك ذكر أنه لما فقدت له بضاعة بكى وقال: «هي قوام ديني»[٢٠] وكان يقول: «لا يخرج العبد عن الزهد امساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس»[٢١].

ويظهر ان بعض الزهاد كانوا يعارضون ابن المبارك في مزاولته الأعمال التجارية وطالبوه بالتفرغ الكامل للعبادة واعتزال الناس.

حدث علي بن الفضيل بن عياض قال: سمعت أبي وهو

---

(١٩) أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٢٦٤، القاهرة: المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢ هـ.

(٢٠) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص ٢٩٥، مكتبة الخانجي، ١٣٤٥/١٩٢٧.

(٢١) الشعراني، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.

يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟! فقال ابن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، واستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به. فقال له الفضيل: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا[٢٢].

وذكر ابن عربي[٢٣] أنه لما عاتبه الفضيل في تعاطيه التجارة قال له: «لولاك وأصحابك ما اتجرت» ويؤكد الخطيب البغدادي ذلك فيذكر في تاريخه[٢٤] ان ابن المبارك كان يتجر بالبز (الثياب) وكان يقول: «لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن من الخمسة؟ فقال: «سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك. وإسماعيل بن علية». فكان يخرج فيتجر إلى خراسان، فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج والباقي يصل به إخوانه الخمسة[٢٥].

(٢٢) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٠.

(٢٣) الشيخ محي الدين بن العربي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، ج ٢، ص ٢٤، القاهرة: مطبعة السعادة. ١٣٢٤/١٩٠٦.

(٢٤) تاريخ بغداد، ج ٦، ص ٢٣٥.

(٢٥) صفة الصفوة، ج ٤، ص ١١٧، ابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ٣٨٦.

ولم يكن ابن المبارك يهتم بنفسه بقدر عنايته واهتمامه باصحابه الذين كانوا يشاطرونه مآسي الغربة والترحال، فكان يسهر على راحتهم ويطعمهم أجود الطعام وهو في صوم دائم ويحرم على نفسه التمادي في عينها.

ذكر صاحب تاريخ بغداد(٢٦) انه صحبه قوم من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص(٢٧) وهو الدهر صائم. وقال ابن كثير(٢٨) إن سفرته كانت تحمل على بعير وحدها، وفيها من أنواع المأكول واللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك. فكان يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد. وكان شعاره دائماً أفضل الزهد إخفاء الزهد(٢٩) لذلك عندما قيل له يا زاهد فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إد جاءته الدنيا راغبة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت(٣٠) فكان لإخلاصه وتقواه، وأدبه وتواضعه، لا يدعي الزهد وإنما حملته تلك الصفات الحميدة على إخفاء أمره عن سائر الناس ليكون عمله خالصاً لله وحده هذا هو الزهد الحقيقي في نظر ابن المبارك، إنه زهد الغنى

---

(٢٦) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٧.
(٢٧) طعام يصنع من التمر والسمن.
(٢٨) البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٠، ص ١٧٨.
(٢٩) الحصري القيرواني، زهرة الآداب، ج ٢، ص ٨١.
(٣٠) أبو حامد الغزالي، ج ٤، ص ٢١٧.

لا زهد الفاقة، وزهد الاختيار لا زهد الاضطرار[٣١] وهذا الموقف يتوافق مع صاحب كتاب قوت القلوب[٣٢]، الذي يرى ان الزهد لا يكون إلا عند ظهور القدرة عليه والعاجز لا يصح زهده. لذلك أحب ابن المبارك أن يكون جميع أصحابه بنفس هذه العقلية المتطورة، فكان لا يسمح لأحد أن يصحبه ما لم تكن له صناعة أو تجارة يتكسب منها.

حدث الحسن بن ربيع قال: قال لي ابن المبارك، ما حرفتك، قلت: أنا بوراني، قال: وما بوراني؟ قلت: لي غلمان يصنعون البواري. قال لو لم تكن لك صناعة ما صحبتني[٣٣].

(٣١) محمد عثمان جمال، المرجع السابق. ص ١٧٤.

(٣٢) أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج ١، ص ٥٤٦، القاهرة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦١.

(٣٣) ابن أبي حاتم، ص ٢٦٩.

٣ ـ ورعه وتواضعه وحسن أدبه:

عرف ابن المبارك إلى جانب زهده بالورع والبعد عن الشبهات[٣٤] فمن أقواله في الورع: «لأن أتصدق بدرهم من حلال أحب إلي من أن أتصدق بستين درهماً من شبهة»[٣٥] وقال أيضاً: «لأن أردد درهماً من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف»[٣٦] وعندما سئل أحمد بن حنبل عن ورع ابن المبارك قال: «إنما رفعه الله بمثل هذا»[٣٧].

ولقد لوحظ ورع ابن المبارك من خلال أفعاله، وتعامله مع الآخرين، ومحافظته على أملاك الغير وبعده عن المحرمات.

روي أنه خرج إلى الغزو عند نهر، ونصب رمحه وربط فرسه فتوضأ وشرع في الصلاة، فلما سلم رأى أن فرسه انفلت يأكل الزرع، فقال: إنه أكل حراماً فلا ينبغي أن يغزى

---

(٣٤) ابن خلكان، ج ٣، ص ٣٢.

(٣٥) ابن أبي حاتم، ص ٢٨٠.

(٣٦) صفة الصفوة، ج ٤، ص ١١٤.

(٣٧) أبو عبد الله أحمد بن حنبل، كتاب الورع، ص ٥، د. ن، د. ت.

عليه، وتركه لصاحب الزرع، واشترى فرساً آخر ومضى لسبيله(٣٨).

وفي الورع تحدث ابن المبارك عن نفسه فقال: استعرت قلماً بأرض الشام فذهب على أن أرده إلى أصحابه، فلما قدمت مرو ونظرت فإذا هو معي، فرجعت إلى أرض الشام حتى رددته على صاحبه(٣٩).

فهذا هو عبد الله بن المبارك العالم الورع الذي تأثر باستاذه سفيان الثوري الذي كان يقول: «ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك تركته»(٤٠). فالورع إذاً هو ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات على حد قول الزاهد الورع إبراهيم بن أدهم(٤١). على هذا الناموس سار ابن المبارك فكان قدوة للزاهدين العاملين ورأساً للرجال الورعين.

كذلك عرف ابن المبارك بتواضعه وحسن أدبه حتى أصبح

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٥، عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص ٥٥، بيروت؛ دار الكتاب العربي، د. ت.

(٣٩) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٧، القشيري، المصدر السابق، ص ٥٥.

(٤٠) القشيري، ص ٥٤.

(٤١) المصدر نفسه، ص٥٣

مضرب المثل لكل من عايشه أو صاحبه في رحلة العلم أو في طريق مكة أو في مناطق الثغور.

قال رجل صالح: رأيت ابن المبارك وعلى عاتقه طن من حطب يدخل خان قريش[٤٢]. وشوهد مرة أخرى وهو يسير حافياً بلا خف ولا نعل في شرى حوائجه في السوق[٤٣] وبلغ غاية التواضع عندما سئل في مسألة وهو في المسجد الحرام، فجعل يقول: «مثلي يفتي في المسجد الحرام؟ أو أنا أهل أن أفتي في المسجد الحرام»[٤٤].

وظهر حسن أدب ابن المبارك عندما حضر مجلس حماد بن زيد للسلام عليه، فقال أصحاب الحديث لحماد: يا أبا إسماعيل تسأل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا؟ فقال: يا أبا عبد الرحمن تحدثهم، فانهم قد سألوني ذلك قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدث وأنت حاضر! قال أقسمت لتفعلن فقال ابن المبارك خذوا، حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد. قال من حضر: فما حدث بحرف إلا عن حماد بن زيد وهذا غاية الأدب[٤٥].

---

(٤٢) ابن أبي حاتم، ص ٢٧١.

(٤٣) المصدر نفسه، ونفس الصفحة.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

(٤٥) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص١٥٥.

وحدث محمد بن حميد قال: عطس رجل عند ابن المبارك فقال له: ايش يقول الرجل إذا عطس؟ قال: يقول الحمد لله، فقال له ابن المبارك: يرحمك الله. قال من حضر: فعجبنا كلنا من حسن أدبه[٤٦].

لقد آمن ابن المبارك ان كل عمل شريف يقوم به المرء لا يذل صاحبه ما دام يؤديه عن قناعة واعتقاد حسن، فهو يحمل الحطب على ظهره دون مبالاة بأحد، ويقصد السوق حافي القدمين لشراء حوائجه، وهو الإمام الفقيه الزاهد الورع الذي ملأت شهرته الآفاق، وعلى الرغم من مقدرته الفقهية، بلغ به التواضع إلى حد انه لم يجد في نفسه الكفاءة التي تؤهله أن يقف في المسجد الحرام ويفتي الناس في مسائلهم ويحلل أمراً ويحرم آخر. ثم نجده يخجل أن يحدث في مجلس حماد بن زيد احتراماً وتقديراً لصاحب المجلس. فقد أراد ابن المبارك بهذه السلوكية أن يعلم الناس التواضع وحسن الأدب ويحثهم على القيام بذلك وضرب لهم مثلاً وبدأ بنفسه ليكون قدوة للآخرين.

(٤٦) المصدر نفسه ونفس الجزء والصفحة.

٤ ـ موقفه من أهل البدع:

لم تمدنا المصادر إلا بنتف متناثرة عن بعض اتجاهات ابن المبارك وهي في معظمها تظهر تشدده وحزمه في محاربة أهل البدع، ونبذ التعصب الديني الذي يقوض أركان الدين، لذا عمل على جمع شمل المسلمين على حب الصحابة متأثراً في ذلك باستاذه سفيان الثوري الذي كان يقول: «إذا كنت في الشام فاذكر مناقب علي، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر»[٤٧]. في حين يرى ابن المبارك وجوب ترك حديث من يسب السلف، فسمع يقول على رؤوس الناس: دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف.

وكان ابن المبارك يتخوف من ظهور أهل البدع ويعتبرهم آفة نزلت بالأمة، لهذا نهى ابناء قومه عن الاجتماع بهم فكان يقول: «يكون مجلسك مع المساكين وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة»[٤٨] إلى جانب ذلك كان يأخذ موقفاً صلباً إزاء

---

(٤٧) أبو نعيم الأصبهاني، ج ٧، ص ٢٧

(٤٨) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٦٨.

المتعاملين مع المبتدعة فعندما بلغه ان أحد أصحابه أكل عند صاحب بدعة قال له: «لا كلمتك ثلاثين يوماً»[٤٩].

وقد اعتبر ابن المبارك ان المعتزلة والجهمية والقدرية من أهل البدع، لهذا حرم على الناس أخذ العلم عنهم وبخاصة من علم عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة في زمانه. لهذا كان يناشد طلاب العلم قائلاً:

أيها الطالِبُ علماً ... أيتِ حمادَ بن زيدْ
فخذ العلم بحلم ... ثم قيدهُ بقيد
وذر البدعة من ... آثار عمرو بن عبيد[٥٠]

وعندما سئل عن سبب ترك الناس لعمرو بن عبيد قال: إن عمراً كان يدعو إلى القدر[٥١].

وكان رأي ابن المبارك في الجهمية والقدرية يشبه رأي شيخه سفيان الثوري الذي كان يقول: «الجهمية كفار والقدرية كفار» فعندما سئل ابن المبارك عن ذلك قال: «رأيي رأي سفيان»[٥٢].

---

(٤٩) المصدر نفسه ونفس الجزء والصفحة.
(٥٠) ابن كثير، ج ١٠ ص ٧٩.
(٥١) ابن أبي حاتم، ص ٢٧٣.
(٥٢) أبو نعيم الأصبهاني، ج ٧، ص ٢٨.

وقد دافع ابن المبارك عن نفسه بصلابة عندما قيل له ان شيبان يزعم انك مرجىء فقال: كذب شيبان، أنا أخالف المرجئة في ثلاثة أشياء فإنهم يزعمون: ان الإيمان قول بلا عمل. وأنا أقول: هو قول وعمل. ويزعمون: ان تـارك الصلاة لا يكفر، وأنا أقول؛ إنه يكفر. ويزعمون: ان الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنا أقول: إنه يزيد وينقص[٥٣].

وأما بالنسبة لمشكلة خلق القرآن، فكان له رأيه الصريح المبني على حسن العقيـدة والإخـلاص للدين، حـدث أحمد بن عبد الله بن يونس قال: سمعت ابن المبارك قرأ شيئاً من القرآن ثم قال: من زعم انه مخلوق فقد كفر بالله العظيم[٥٤].

---

(٥٣) الشعراني، ج ١، ص ٦٠.
(٥٤) تذكرة الحفاظ، ج١، ص ٢٥٧.

الفصل الرابع

١ ـ كرم عبد الله بن المبارك.

٢ ـ جهاده وشجاعته

١ - كرم عبد الله بن المبارك:

إلى جانب عطاء ابن المبارك الذي شمل الفقراء والأيتام وأبناء السبيل إضافة إلى اغداقه على العلماء والفقهاء والزهاد والعباد، فقد حفظت المصادر أخبار جوده وكرمه وهي صفحات مشرقة تضاف إلى سجل حياته الحافل بالعطاء ونكران الذات. أضف إلى ذلك أنه كان لابن المبارك في عطائه فلسفة خاصة به، لأنه وجد في مساعدة المحتاجين قربى إلى الله لا تقل، إذا لم تزد، عن القيام بالواجبات الدينية كالحج والعمرة.

ذكر ابن كثير في تاريخه(١)، أن ابن المبارك خرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم فأمر بالقائه على مزبلة هناك. وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا فتاة خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته واسرعت به إلى الدار. فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يُلقى على هذه

(١) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٧٨.

المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظُلم وأخذ ماله وقتل. فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عُد منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي. فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ثم رجع.

والواضح ان ابن المبارك كان كريماً إلى حد الإسراف ولكن لا شك في جوده ما دام زاهداً في الدنيا ومتاعها، وكل ما يرجوه القيام بعمل الخير بغية إرضاء ربه وضميره وابناء مجتمعه الذين سادهم بزهده وورعه وتقواه لذا كان رأساً في الكرم[٢].

وكان كرم ابن المبارك يتجلى في موسم الحج، عندما يجتمع إليه إخوانه من أهل مرو فيقولون له: نصحبك يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ ما معهم من مال فيجعله في صندوق ويقفل عليه، ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري

(٢) الذهبي، العبر، ج ١، ص ٢٨١.

لهم من المدينة من طرفها؟ فيقول: كذا فيشتري لهم، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا وصلوا إليها فقضوا حوائجهم قال لكل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري من متاع مكة؟ فيقول كذا وكذا، فيشتري لهم ويخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم حتى يصيروا إلى مرو، فإذا وصلوا إليها جصص أبوابهم ودورهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وشربوا، دعا بالصندوق ودفع إلى كل رجل منهم صرته بعد أن كتب عليها اسمه(٣).

وخرج مرة من بغداد غازياً يريد المصيصة(٤) فصحبه جماعة من الصوفية قد تطوعوا للجهاد فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم. ثم قال لغلامه: يا غلام هات الطست، فألقى على الطست منديلاً غطاه به ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، فجعل الرجل

---

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤، ص ١١٦ وما يلي، ابن العربي، محاضرات ج ٢، ص ٢٤، ابن كثير، ج ١٠، ص ١٧٨، الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٨،

(٤) المصيصة: هي مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، وكانت من أشهر ثغور الإسلام، وقد رابط بها الصالحون قديماً.

شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤ ـ ١٤٥، بيروت: دار بيروت ـ دار صادر، ١٣٩٩/١٩٧٩.

يلقي عشرة دراهم وآخر يلقي عشرين، فانفق عليهم إلى المصيصة، فلما بلغها قال: بلاد نفير فنقسم ما بقي، فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً، فيقول: يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً. فيقول ابن المبارك: وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته[٥].

وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً، فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج، وقد كان يكفيه قطعة، فقال: والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز، فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لا يكفيه درهم. ثم أمر بعض غلمانه فقال: رده وادفع إليه عشرة دراهم[٦].

وجاءه رجل سأله أن يقضي ديناً عليه، فكتب له إلى وكيله، فلما ورد الكتاب على الوكيل سأله: كم الدين الذي سألت فيه عبد الله بن المبارك أن يقضيه عنك؟ قال: سبعمائة درهم. فنظر في الكتاب فإذا قد أمر له بسبعة آلاف درهم، فكتب إلى عبد الله: «إن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم وكتبت له سبعة آلاف درهم وقد فنيت الغلات» فكتب إليه عبد الله بن المبارك: إن كانت الغلات

---

(٥) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٧.

(٦) ابن كثير، ج ١٠، ص ١٧٨.

قد فنيت فإن العمر قد فني، فأجز له ما سبق به قلمي[7].

وهكذا فإن فضائل ابن المبارك ومناقبه، وقصص جوده وكرمه تغص بها المصادر الموثوقة، وهي في معظمها تتضمن المؤشر ذاته. مما يثبت ان كرم ابن المبارك كان حقيقة لا مجال لإنكارها وهذا كله يعزز مكانة الرجل الذي ما كان يرجو من الدنيا أي مكسب ما دامت لا تساوي في نظره جناح بعوضة، وإنما كل غايته إرضاء الله وضميره، وإدخال السعادة على قلوب الناس بفضل مساعيه الخيرة، وفك ازماتهم الاقتصادية.

(٧) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص١٥٨ وما يلي.

٢ ـ جهاده وشجاعته:

كان الإمام عبد الله بن المبارك، إلى جانب فقهه وزهده وعلمه، إماماً مجاهداً في سبيل الله، ومن الأبطال المعدودين في ساحة التضحية والشرف، كان إماماً في ساحة الجهاد، كما كان إماماً في محراب المسجد[٨] وذلك لأنه آمن بأن الفقه والزهد والورع والعلم ليست من مبررات القعود عن الجهاد.

ذكرت المصادر ان ابن المبارك كان من الطراز الممتاز من العلماء المجاهدين، فقال فيه الذهبي[٩] وابن العماد الحنبلي[١٠]: «كان ابن المبارك رأساً في الشجاعة والجهاد». وكان كثير الغزو والحج[١١]، فهو يحج سنة ويغزو سنة[١٢]. لذا اعتبره صاحب تذكرة الحفاظ[١٣] «فخر

---

(٨) محمد عثمان جمال، ص١٨٩.

(٩) العبر، ج ١، ص ٢٨١.

(١٠) شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٩٦.

(١١) ابن كثير، ج ١٠، ص ١٧٧ أبو نعيم الأصبهاني، ج ٨، ص ١٦٢.

(١٢) العبر، ج ١، ص ٢٨١.

(١٣) الذهبي، ج ١، ص ٢٥٣.

المجاهدين». وكان وهو في الثغور للرباط والجهاد لا ينسى أن يعلم الناس العلم والحديث(١٤). فكان إذا وصل إلى ثغور طرسوس(١٥) أو المصيصة اجتمع المجاهدون حوله يتعلمون منه العلم، ويكتبون عنه الحديث كما يتعلمون منه الشجاعة(١٦). وبقي هذا دأبه طوال حياته حتى أدركته الوفاة وهو منصرف من بعض الثغور حيث كان يؤدي قسطه من الجهاد.

وقد كان ابن المبارك يحث الناس على الجهاد، ويذكرهم بأن العبادة تحت ظلال السيوف خير من العبادة في محراب المسجد حيث الراحة والأمان وقد تجلى ذلك في قصيدته التي بعث بها من الغزو مع محمد بن إبراهيم إلى صديقه الإمام الزاهد الفضيل بن عياض والتي يقول فيها:

يا عابَد الحرمين لو ابصَرتنا
لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ

---

(١٤) محمد عثمان جمال، ص ١٩٠.

(١٥) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم، وبها قبر الخليفة المأمون، وكانت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها للرباط والجهاد لأنها من ثغور المسلمين. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨.

(١٦) ابن أبي حاتم، ص ٢٧٨.

من كان يخضبُ جيده بدُمُوعه
فنحورُنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يُتعب خيله في باطلٍ
فخيولُنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبير لكم ونحن عبيرُنا
رهجُ السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا مقال نبينا
قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكذبُ
لا يستوي غبارُ خيل الله
أنف امرىء ودُخانُ نارٍ تلهبُ
هذا كتابُ الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميتٍ لا يكذب

فلما قرأ الفضيل هذه الأبيات ذرفت عيناه ثم قال: «صدق أبو عبد الرحمن ونصح»(١٧). ثم قال لمن جاءه بالرسالة: اكتب هذا الحديث جزاء لحمل الكتاب وقال: «حدثني المنصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، ان رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «دلني على عمل أنال به ثواب

(١٧) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ١٠٣ ـ ١٠٤، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ وما يلي: .

المجاهدين في سبيل الله» فقال النبي ﷺ: «هل تستطيع أن تصوم لا تفطر، وتصلي ولا تفتر؟ فقال: يا رسول الله إني أضعف عن ذلك، فقال عليه السلام: فوالذي نفسي بيده لو طُوفت ذلك لما بلغت فضل المجاهد في سبيل الله، أما علمت ان فرس المجاهد ليستن في طوله، فيكتب لصاحبه بذلك الحسنات»[١٨].

ويبدو أن ابن المبارك كان يكره التخاذل والاستكانة والاستسلام لذا كانت له صرخة مدوية يبعث بها من حين لآخر إلى أصحابه في العبادة مذكراً إياهم بأن العبادة في مناطق الثغور حيث الدفاع عن حرمة الدين، وليس في بغداد مدينة الترف والبذخ لهذا راح يذم أحد النساك قائلاً:

أيها الناسك الذي لبس الصو
ف وأضحى يعد في العباد
الزم الثغر والتعبد فيه
ليس بغداد مسكن الزهاد
إن بغداد للملوك محلٌ
ومناخ للقارىء الصياد[١٩]

---

(١٨) ذيل الجواهر المضية، ج ٢، ص ٥٣٣.
(١٩) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٢١.

ويذكر صاحب تاريخ بغداد، قصة تظهر ان ابن المبارك كان من خيرة الأبطال في ساحة القتال لا ترهبه شجاعة الفرسان وقتال الجبابرة ولا يخشى الموت لأنه آمن بأنه من قتل في سبيل الله فهو من الشهداء والصديقين.

حدث عبدة بن سليمان المروزي قال: «كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، فتأخر عنه المسلمون فصال وجال بين الصفين ودعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة، ثم طعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فكنت فيمن ازدحم إليه، فإذا هو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته، فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: «وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا»[٢٠].

لم يكن عبد الله يحبُ الظهور والمفاخرة ولا المشاركة في الغنيمة، فكان يحضر القتال ويبلي بلاء حسناً فإذا جاء وقت القسمة غاب عن الساحة ضارباً بذلك المثل بالزهد والتضحية وعزة النفس. وعندما قيل له في ذلك فقال: «يعرفني الذي أقاتل له»[٢١].

---

(٢٠) المصدر نفسه، ج١٠، ص ١٦٧.
(٢١) ذيل الجواهر المضية، ج ٢، ص ٥٣٤.

فهذا هو الجهاد الحقيقي، والفداء المثالي، الذي يعمل صاحبه في السر، ويضحي بنفسه من أجل إعلاء شأن الأمة، غير آبه بالشهرة والحصول على الأجر.

حدث عبيد الله بن سنان قال: كنت مع ابن المبارك ومع المعتمر بن سليمان بطرسوس فصاح الناس: النفير، فلما اصطف الناس خرج علج رومي يطلب البراز، فخرج إليه رجل مسلم فقتله الرومي، ثم آخر، حتى قتل ستة من المسلمين، ثم لم يخرج إليه أحد، فلما رأى ابن المبارك ذلك أوصى إلي وقال: إن قتلت فافعل كذا وكذا، ثم خرج من الصف فقتله وقتل ستة من الروم، ثم امتنعوا عنه، فغاب، ثم نظرته فإذا هو بالمكان الذي كان فيه[٢٢].

وقد شغف ابن المبارك بالجهاد إلى حد أنه ندم على الأيام التي سلخها في الفقه وشغلته عن الغزو والمرابطة في الثغور، فذكر صاحب كتاب تقدمة الجرح والتعديل[٢٣] نبذة عن عبدة بن سليمان المروزي قال: كنا مع ابن المبارك في أرض الروم، فبينا نحن نسير ذات ليلة والسماء ـ يعني المطر ـ من فوقنا ـ والبلة من تحتنا، قال ابن المبارك: يا أبا محمد، أفنينا أيامنا في الإملاء والظهار عن مثل هذه الليلة.

---

(٢٢) المصدر نفسه، ونفس الجزء والصفحة.

(٢٣) ابن أبي حاتم، ص ٢٨٠.

بهذه الروح العالية كان عبد الله بن المبارك يواجه الحياة، ويخوض معتركها، ويدخل ساحتها من أبوابها الواسعة، ويقوم بالأعمال البطولية المشرفة ليخلد اسمه في ديوان الأبرار، وتنظر إليه الأجيال على أنه إمام يقتدى به، وفارس يعتمد عليه في الملمات، وزاهد يهتدى بنهجه وورعه، فهو فخر المجاهدين وقدوة الزاهدين.

الفصل الخامس

١ ـ موقفه من مخالطة السلاطين

٢ ـ عبد الله بن المبارك والخليفة هارون الرشيد

ـ موقفه من مخالطة السلاطين:

كان لقضية مخالطة السلاطين أهمية كبيرة بحيث أولاها الفقهاء والأئمة كل عناية، فأكبوا عليها يعالجونها من جميع نواحيها، وتدارسوا فيما بينهم ما يحل منها وما يحرم، وتناظروا في غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم أو الفرار منهم، وبنتيجة الدرس والتحليل توصلوا إلى الحقيقة التالية وهي: ان العلاقة مع الخلفاء والأمراء والعمال الظلمة تؤدي بالنهاية إلى فرز ثلاث حالات وهي:

الحالة الأولى: وهي شرها ـ أن يدخل الفقهاء والعلماء والزهاد وغيرهم من الرجال الصالحين على السلطان الظالم.

الحالة الثانية: وهي دونها ـ أن يدخل السلطان الظالم على الفئة الصالحة زائراً بغية سماع العظة والنصيحة أو الفتوى.

الحالة الثالثة: وهي اسلمها ـ لأن الفقيه الزاهد يعتزل أصحاب الشأن فلا يراهم ولا يرونه.

والملاحظ، ان الإمام عبد الله بن المبارك كان ينتمي إلى المجموعة الأخيرة من هذا التقسيم، وذلك استناداً إلى ما

أمدتنا به المصادر من إشارات تبين ان ابن المبارك كان بعيداً كل البعد عن السلاطين، لأنه كان يخشى من فتنة الدخول عليهم، وذلك لأن النفس أمارة بالسوء، فهي تعد بالشدة والحزم والأمر والنهي ما دامت بعيدة عنهم، فإذا شاهدتهم عن قرب مالت إليهم وتخلت عن واجبها، إما رهبة وإما رغبة، وهذا الهاجس ما برح يقلق مضجع ابن المبارك حتى اتخذ قراره بشأن ذلك وهو: وجوب البعد عنهم والفرار منهم أسو بأستاذه سفيان الثوري الذي كان يقول: «إن دعاك هؤلاء الملوك تقرأ عليهم قل هو الله أحد، فلا تأتهم فإن قربهم مفسدة للقلب»[1].

وكان الثوري يتخوف دائماً من مغبة الدخول على السلطان وطالما نصح أصحابه بالبعد عنه وها هو يوجه إلى عبد الله بن المبارك النصيحة تلو النصيحة داعياً إياه للفرار من السلطان لأنه لا يأمن من شره، . «وقد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطراً من صحب السلطان»[2]، و«أسد حطوم خير من سلطان ظلوم»[3].

---

(١) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ص ٨٦.
(٢) الأبشيهي، المستطرف، ج ١، ص ١١٠.
(٣) أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٨٨، الإسكندرية: المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.

ولقد روى ابن أبي حاتم[٤] بسنده عن ابن المبارك انه قال: كتب إلي سفيان بن سعيد الثوري: «إلى عبد الله بن المبارك، أما بعد؛ فانشر في الناس ما علمك الله، وإياك والسلطان».

وبالفعل فقد عمل ابن المبارك بموجب هذه الوصية فكان لا يبخل بنشر العلم أينما حل لهذا وجدناه في منطقة الثغور يجمع حوله المجاهدين ويلقنهم العلم والحديث (كما مر معنا) وأما بالنسبة لبعده عن السلطان، فعندما قيل له لو أتيت هذا الرجل ـ يعني الخليفة ـ فوعظته؛ قال: «لا، ليس الآمر الناهي من دخل عليهم، إنما الآمر الناهي من جانبهم»[٥].

ولكن إذا كان ابن المبارك حرم على نفسه الدخول على السلطان فلا يعني ذلك انه كان يستخف بهم، فكان يقول: «على العاقل أن لا يستخف بثلاثة؛ العلماء والسلطان والإخوان؛ فإن من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته»[٦]

(٤) الجرح والتعديل، ص ٢٦٣.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٠.
(٦) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج ١ ص ٨٠.

ولقد أوتي ابن المبارك من الشجاعة الأدبية وقوة الشخصية إلى حد انه استطاع أن يجابه كبار الحكام بعناد تام ويرفض الاستجابة لمطالبهم خشية اغضاب الله ورسوله، وشعاره في ذلك: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وقد حدث ذلك عندما وقف أحد الأمراء ببابه يسأله عن حديث رسول الله ﷺ.

فعن أحمد بن أبي الحواري، وهو ثقة، قال: حدثني بعض أصحابنا قال: جاء عبد الله بن العباس الطرسوسي - وكان والياً بمرو - إلى منزل عبد الله بن المبارك بالليل ومعه كاتبه والدواة والقرطاس، فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه، ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه - ثلاث مرات - فقال أبو العباس لكاتبه: أطوِ قرطاسك ما أرى أبا عبد الرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا، فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، لِمَ لم ترنا أهلاً أن تحدثنا وتمشي معنا؟ فقال: إني أحببت أن أذل لك بدني ولا أذل لك حديث رسول الله ﷺ(٧).

لقد عز ابن المبارك نفسه، فلم يذلها على أبواب السلاطين والحكام فصان بذلك دينه وشرفه وعلمه، بعكس

---

(٧) أبو نعيم الأصبهاني، ج ٨، ص ١٦٩، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٥.

علماء السوء وتجار الدين الذين صنفهم ابن المبارك في فئة السفلة بين الناس، فعندما قيل له مرة من السفلة؟ فقال: الذين يتعيشون بدينهم[٨] فيأكلون الدنيا بالدين[٩] فمن شعره في الذين يبيعون دينهم بدنياهم، ويجعلون من العلم وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل:

قد يفتحُ المرءُ حانوتاً لمتجره
وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوتٌ بلا غَلَق
تبتاعُ بالدين أموال المساكين
صيرت دينك شاهينا تصيدُ به
وليس يُفلح أصحاب الشواهين[١٠]

وكان يقول: «من بخل بالعلم اما أن يموت أو ينسى أو يلحق بالسلطان»[١١] فالدخول على السلطان هو نظير الموت في شرعة ابن المبارك.

ويرى الإمام المجاهد أن تشويه الدين وسبب تدنيسه يأتي من أمراء السوء وعلماء السؤ لذلك كان يقول:

---

(٨) الشعراني، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٥.
(٩) الغزالي، إحياء، ج ١، ص ٧.
(١٠) ابن خلكان، وفيات، ج ٣، ص ٣٣.
(١١) المناوي، تراجم الصوفية، ج ١ ص ١٣٢.

وهــل بــدل الــديــن إلا الــمــلوك
وأحــبــار ســؤ ورهــبــانــهــا
لــقــد رتــع الــقــوم فــي جــيــفــة
يــبــيــن لــذي الــعــلــم انــتــانــهــا[١٢]

وكثيراً ما كان ينهي الرعية من خدمة السلطان والتعامل معه حتى لا يغدو من الظلمة.

روي أنه قال لـه خياط: أنـا أخيط ثياب السـلاطين فهـل يخاف علي أن أكون من الظلمة؟ قال: «لا، إنما أعوان الـظلمة من يبيـع الخيط والإبرة، أمـا أنت فمن الظلمـة نفسهم»[١٣].

كان ابن المبارك يعمل على رفع شأن العلم والعلماء ويخشى من أن تذل حرمة الأئمة على أبواب السلاطين عملاً بنهج الإمام علي بن أبي طالب الذي كان يقول «إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيت الملوك على أبــواب العلمــاء فنعم الملوك ونعـم العلمـاء». لهذا كـان ابن المبارك متشـدداً في مقاطعتـه لأصحابه إذا ما تولى أحدهم مناصب السلطان.

---

(١٢) الشعراني، ج ١، ص ٦٥.
(١٣) المناوي، ج ٧١ ص ١٣٢.

يروى أن ابن المبارك كان يرسل في كل سنة بصرة من المال إلى إسماعيل بن إبراهيم بن علية، فقدم سنة إلى بغداد، فقيل له قد ولي ابن علية القضاء، فلم يأته ولم يصله بالصرة التي كان يصله بها في كل سنة، فبلغ ابن علية أن ابن المبارك قد قدم، فركب إليه فتنكس على رأسه فلم يرفع به عبد الله رأساً، ولم يكلمه فانصرف فلما كان من غد كتب إليه رقعة جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، اسعدك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وحاطك بحياطه، قد كنت منتظر لبرك وصلتك، اتبرك بها، وجئتك أمس فلم تكلمني، رأيتك واجداً علي فأي شيء رأيت في حتى اعتذر إليك منه؛ فلما وردت الرقعة على عبد الله بن المبارك دعا بالدواة والقرطاس وقال:

«يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا. ثم كتب إليه:

يا جاعل العلم له بازياً
يصطاد أموال السلاطينِ
احتلت للدنيا ولذتها
بحيلة تذهب بالدينِ
فصرت مجنوناً بها بعدما
كنت دواءً للمجانينِ

أيــن روايــاتــك فــيــمــا مــضــى
عــن ابــن عــون وابــن ســيــريــنِ
أيــن روايــاتــك فــي ســـردهــا
فــي تــرك أبــواب الــســلاطــيــنِ
إن قــلــت أكــرهــت فــذا بــاطــل
زل حــمــار الــشــيــخ فــي الــطــيــن[١٤]

فلما وقف ابن علية على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء، فوطىء بساط هارون الرشيد وقال: يا أمير المؤمنين. الله الله ارحم شيبتي فإني لا أصبر للخطأ، فقال له هارون: لعل هذا المجنون أغرى عليك؟ فقال: الله الله أنقذني، أنقذك الله، فأعفاه من القضاء، فلما اتصل ذلك، بعبد الله بن المبارك، وجه إليه بالصرة[١٥].

وكان ابن المبارك كذلك يكره عطايا السلاطين وهباتهم وهداياهم. ويحرم ذلك على نفسه وعلى أصحابه، لهذا

(١٤) الخطيب البغدادي، ج ٦، ص ٢٣٥ ـ ٣٦.
أبو يعلى الفراء طبقات الحنابلة، اختصار محمد النابلسي، تصحيح أحمد عبيد، ص ٦٠ ـ ٦١، دمشق، مطبعة الاعتدال، ١٣٥٠ هـ الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، ج ١، ص ٣٤، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦١.
(١٥) الخطيب البغدادي، ج ٦، ص٢٣٦، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٩٦، ابن كثير، ج١٠، ص ٢٢٤.

كان يشير عليهم عندما يتورطون في هذا الأمر بأن ينفقوا تلك الأموال على المحتاجين لأنها من الأموال المغصوبة التي لا يجوز شرعاً أن ينفقها الأئمة والعلماء على أنفسهم وإنما إذا كان لا بد من أخذها فيجب أن تصرف في أعمال الخير.

وقد دخل أبو إسحاق الفزاري أحد كبار العلماء على الخليفة هارون الرشيد، وكان لا يستنكر ذلك، فأمر له بثلاثة آلاف دينار ومركوب، فتهرب الفزاري بكل ما عنده من حجج وعندما لم يجد بداً من أخذها، قبلها منه، وفي الطريق لقيه ابن المبارك فقال: من أين أقبلت؟ قال: من عند أمير المؤمنين، وقد أعطاني هذه الدنانير وأنا عنها غني، قال: فإن كان في نفسك منها شيء فتصدق بها، فما خرج من سوق الرافقة(١٦) حتى تصدق بها كلها(١٧).

والملاحظ من خلال ما أورده الذهبي في أعلام النبلاء(١٨) ان ابن المبارك لم يبدل من موقفه المتشدد إزاء عطايا

---

(١٦) الرافقة: هي مدينة الرقة وقد بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥/٧٧٢ ياقوت؛ معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٥.

(١٧) ابن أبي حاتم، ص ٢٨٤. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق د. س. مرجليوت، ج ١، ص ٢١٥، القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣.

(١٨) ج ٦، ص ٢٥٦.

السلاطين، فقد حدث أنه كان عند صديق العمر الفضيل بن عياض فقال أحدهم موجهاً كلامه للفضيل إن أهلك وعيالك قد احتاجوا مجهودين إلى هذا المال، فاتق الله وخذ من هؤلاء القوم ـ يعني الخلفاء ـ فزجره ابن المبارك وأنشأ يقول:

خذ من الجاروش والأرز والخبز الشعير
واجعلن ذاك حلالاً تنج من حر السعير
وأنأ ما اسطعت ـ هداك الله ـ عن دار الأمير

لا تزرها واجتنبها إنها شر مزور
توهن الدين وتدنيك من الحوب الكبير
قبل أن تسقط يا مغرور. في حفرة بير
وارض يا ويحك من دنياك بالقوت اليسير

إنها دار بلاء وزوال وغرور
ما ترى قد صرعتْ قبلك أصحاب القصور
كم ببطن الأرض من ثاوٍ شريف ووزير

. . . .

أين فرعون وهامان وغرور النسور
أو ما تحذر من يوم عبوس قمطرير

فلما سمع الفضيل ذلك خر مغشياً عليه، ورد ذلك المال، ولم يأخذه واستمر ابن المبارك مقاطعاً للسلطان وعماله حتى

آخر رمق في حياته، فعندما حضرته الوفاة اشتهى سويقاً فلم يوجد إلا عند رجل يعمل في أعمال السلطان فعرض عليه فلم يقبل، ومات ولم يشرب[١٩].

وإذا كان ابن المبارك قد رفض بعناد عطايا السلاطين وحث الناس على ذلك، فلا يعني أنه رفض هدايا الأصحاب، فكان يقبل الهدية ويثيب عليها زيادة في الملاطفة والمودة. فعن عبدة بن سليمان قال: كنا مع ابن المبارك في المصيصة فأول ما جاء الليل اهديت إليه جام لبأ على يد بني لي. فقبل منه وصر في كفه ديناراً، ثم التقيته في السوق فقلت: يا أبا عبد الرحمن وجهت إليك... فقال: اسكت لا تتكلم بشي[٢٠]. هكذا كانت حياته دائماً فهو يكتم الزهد والعبادة كما يكتم الجهاد والعطاء.

(١٩) ذيل الجواهر المضية، ج ٢، ص ٥٢٩.
(٢٠) ابن أبي حاتم، ص ٢٧٨.

٢ ـ عبد الله بن المبارك والخليفة هارون الرشيد:

لقد عاصر عبد الله بن المبارك خمسة خلفاء من بني العباس، كما ذكرنا، وعلى الرغم من ذلك فإن المصادر لم تمدنا إلا باليسير من أخباره وعلاقاته غير المباشرة مع الخليفة هارون الرشيد الذي كان يرغب في دخول هذا الفقيه الزاهد إلى بلاطه اسوة بغيره من الزهاد والوعاظ الذين حللوا الدخول على السلطان أمثال: ابن السماك الواعظ والإمام الفزاري، والفقيه إسماعيل بن عياش وغيرهم.

ولكن ابن المبارك رفض الدخول على الرشيد وقد تسلح بالشجاعة وعزة النفس ولم ترهبه سطوته وجبروته لأنه لا يعبأ بالموت ما دام نصير الحق ومحارب الظلم والفساد في مجتمعه، وكان مثله الأعلى في هذا الموقف شيخه واستاذه الفذ سفيان الثوري الذي رفض منصب القضاء وأبى الدخول على أبي جعفر المنصور.

وعن المواقف الشجاعة التي تحلى وعرف بها ابن المبارك ما رواه الذهبي في تذكرة الحفاظ[٢١]، فلما قدم الرشيد ـ

---

(٢١) ج ١، ص ١٥٦.

عين زربة ـ طلب ابن المبارك قال أبو سليمان: فذكرت وقلت: إن ابن المبارك رجل خراساني لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين، وأهلكت ابن المبارك، وأهلكت نفسي، فأمسك عنه ثم عاود، فقلت: يا أمير المؤمنين ابن المبارك جلف غليظ الطباع، فأمسك الرشيد، ثم ظهر ابن المبارك بعد ثلاث، فقيل له: تجنبت ثم ظهرت؟ قال: أردت نفسي على الموت فأبت فلما أجابتني ظهرت.

وكان ابن المبارك، إلى جانب ذلك، ينازع الرشيد الأهمية والمكانة في قلوب الطبقات الشعبية، فكانت منزلته عندهم أعظم من منزله أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، فالناس يتوافدون لاستقباله ويحتشدون لرؤيته أكثر مما يزدحمون لرؤية هارون الرشيد، وما أروع تلك الصورة التي أمدتنا بها المصادر الموثوقة وهي تجسم تلك الحقيقة.

قدم هارون الرشيد الرقة وتزامن ذلك مع دخول ابن المبارك إليها، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة. فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له: عبد الله بن المبارك. فقالت: هذا والله الملك، لا ملك

هارون الذي يجمع الناس إلا بشرط[٢٢] وأعوان وبالسوط والعصا والرغبةِ والرهبة[٢٣].

وهكذا تحاول المصادر جاهدة تصوير المنافسة التي كانت على أشدها بين رجال السياسة ملوك الأبدان، ورجال الدين ملوك الأرواح ـ والملاحظ ان الخلفاء العباسيين كانوا يسعون لضم بعض الفقهاء والزهاد إلى بلاطهم وذلك لما لهم من تأثير في قلوب العامة وهذا الأمر يعزز حكمهم ويدعم عروشهم.

وعلى الرغم من أن ابن المبارك لم يختلط بذوي الشأن، ولم يتعامل معهم بل على العكس من ذلك، فقد كان كالسيف المسلط فوق رقابهم، يستنهض الهمم ويلفت انظار الرعية إلى أخطاء الراعي المتجبر. نجد بالمقابل ان الخليفة هارون الرشيد يقدر ابن المبارك ويعترف بزهده وورعه وبنبوغه في علوم الدين، ويقر بفضله وعفة نفسه وعلو مركزه. وإذا كان الرشيد لم يعلن ذلك صراحة في حياة ابن المبارك،

---

(٢٢) الشرط، الواحد شرطي، وشرطة وهم أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ابن منظور، لسان العرب، ج ٧ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠، بيروت: دار صادر ـ دار بيروت، ١٣٨٨/١٩٦٨.

(٢٣) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٥٦، النووي، ج ١، ص ٢٨٥، ابن كثير، ج ١٠، ص ١٧٨، الشعراني، ج ١، ص ٦٥، ابن خلكان، ج ٣، ص ٣٣.

فقد أعلنها بصدق يوم وفاته. فاعتبر ذلك مصيبة نزلت بالمسلمين، ورأى من واجبه أن يتقبل العزاء في عالم الأمة وحبرها.

فعندما ورد عليه كتاب صاحب الحيرة من هيت ويتضمن: «إنه مات رجل بهذا الموضع غريب، فاجتمع الناس على جنازته، فسألت عنه فقالوا: عبد الله بن المبارك الخراساني» فاضطرب الرشيد وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، يا فضل - للفضل بن الربيع - ائذن للناس من يعزينا في عبد الله بن المبارك» فأظهر الفضل تعجباً، فقال له الرشيد: «ويحك! إن عبد الله هو الذي يقول:

الله يدفع بالسلطان معضلة
عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل
وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

من سمع هذا القول من مثل ابن المبارك مع فضله وزهده وعظمته في صدور العامة ولا يعرف حقنا؟»[٢٤] ويضيف الخطيب البغدادي[٢٥] انه لما بلغ الرشيد خبر موت ابن

---

(٢٤) أبو نعيم الأصبهاني، حلية، ج ٨، ص ١٦٤.
(٢٥) تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ١٦٣.

المبارك قال: «مات سيد العلماء». ثم جلس للعزاء، وأمر الأعيان أن يعزوه فيه[٦٦].

مهما يكن من أمر، ففي اعتقادي، ان الموقف الذي اتخذه الرشيد على أثر موت ابن المبارك قد يكون بدافع التقدير لشخصه، وربما للفت أنظار جمهور العامة وجذبهم إلى صفه باعتباره خليفة الله في أرضـه، والمحافظ على الشرع، وراعي الرجال الصالحين في حياتهم وبعد مماتهم.

---

(٦٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٥.

الفصل السادس

١ ـ مكانته عند العلماء

٢ ـ من أقواله وحكمه

٣ ـ وفاته ورثاؤه

١ ـ مكانته عند العلماء:

تبوأ ابن المبارك مركزاً مرموقاً بينْ الأئمة والعلماء، وبلغت شهرته الآفاق وتردد اسمه في كل مكان حتى أصبح عالم المشرق والمغرب وما بينهما بشهادة معاصريه، وبدا تأثيره واضحاً في كبار العلماء فقالوا فيه الأقوال السديدة المفعمة بعبارات التقدير والإجلال.

قال إسماعيل بن عياش: «ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك. ولا أعلم ان الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه»[١]. وبلغ من علو المنزلة حتى جعله العلماء في صف الصحابة، لا يفضلون عليه إلا بشرف الصحبة، وفي ذلك يقول سفيان بن عيينة: «نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه»[٢] وهو في نظر الفضيل بن عياض أوحد أهل زمانه إذ يقول فيه:

---

(١) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ١٥٧، الذهبي تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٤، ابن حجر العسقلاني، ج٥، ص ٣٨٥.

(٢) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ١٦٧، ابن كثير، ج ١٠، ص ١٧٨.

«ورب هذا البيت ما رأت عيناي مثل ابن المبارك»[٣].

إلى جانب ذلك كانت رؤية ابن المبارك تسر القلب وتقر العين، ويتباهى العلماء بها. فعن أبي عثمان الكلبي أنه قال: «قال الأوزاعي، رأيت ابن المبارك؟ قلت: لا، قال: لو رأيته لقرت عينك»[٤].

وشهد بذلك عبد الرحمن بن مهدي فقال: «ما رأيت مثل ابن المبارك»[٥] وسمع سفيان الثوري يقول: «إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام»[٦].

وأما الفضيل بن عياض فكان يقول: «ما أحب أن يستأذن علي أحد إلا العمري وابن المبارك»[٧] وكان يوسف بن اسباط يقول: «ابن المبارك سيد القراء وهو أحب إلي من أبي»[٨].

والملاحظ ان شهرة ابن المبارك لم تعد موضوع خلاف

---

(٣) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٥، ابن العماد الحنبلي، ج ١، ص ٢٩٦.
(٤) ابن أبي حاتم، ص ٢٦٧، النووي، تهذيب الأسماء، ج ١، ص ٢٨٥.
(٥) ابن أبي حاتم، ص ٢٦٦.
(٦) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٢.
(٧) ابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ٣٠٣.
(٨) ابن أبي حاتم، ص ٢٦٩.

بين معاصريه ولا سيما بعد أن أصبح اسمه اشهر من أن يعرف ويذكر إلى جانب عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، فيروى أن سليمان المروزي كان يقرأ كتاباً لعبد الله بن المبارك، ويبدو أنه كان يقول: قال عبد الله، فقيل له: قل ابن المبارك. فقال سلمة: إذا قيل بمكة عبد الله فهو ابن عباس، وإذا قيل بالمدينة عبد الله فهو ابن عمر، وإذا قيل بالكوفة عبد الله فهو ابن المبارك(٩).

وخير شاهد على قدر ابن المبارك بين الأئمة والعلماء مركزه عند الإمام مالك بن أنس، فقد كانت مكانته عظيمة، وكان مالك يعترف بفقهه وعلمه ويسميه فقيه خراسان، ويحترمه ويجلسه إلى جانبه.

حدث يحيى بن معين فقال: كنا في مجلس مالك فاستؤذن لابن المبارك فأذن له، فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلسه، ثم اقعده بلصقه، ولم أره تزحزح لاحد في مجلسه غيره، فكان القارىء يقرأ على مالك فربما مر بشي فيسأله مالك: ما عندكم في هذا؟ فكان عبد الله يجيب بالخفاء. ثم قام فخرج، فأعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا: هذا ابن

(٩) الإمام أحمد بن حنبل، الورع، ص ٧٣.

المبارك فقيه خراسان[١٠] وقال الإمام أحمد بن حنبل: «ما أخرجت خراسان مثل ابن المبارك»[١١].

ومدحه عمار بن الحسن فقال:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة
فقد سار منها نورها وجمالُها
إذا ذُكر الأحبارُ في كل بلدة
فهم أنجم فيها وأنت هلالها[١٢]

ولقد أمتد تأثير ابن المبارك إلى أكثر من مائة سنة بعد وفاته، فكان يقاس به بعض العلماء والزهاد[١٣].

---

(١٠) ابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ٣٨٦.

(١١) أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ص ٧٣.

(١٢) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٣، النووي، ج ١، ص ٢٨٥، ابن العماد الحنبلي، ج ١، ص ٩٩٦.

(١٣) ابن أبي حاتم، ص ٢٧٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج ٣، ص ٤٤.

٢ ـ من أقواله وحكمه:

تغص كتب التراجم والطبقات بأقوال عبد الله بن المبارك وحكمه التي تعتبره دستوراً استقاه من تجاربه في الحياة، ولا بأس إذا أوردنا جانباً منها، لأنها تكشف ما في أعماق الرجل من تجارب وصراع مع الذات الإنسانية ومع المجتمع الذي عايشه.

قال ابن المبارك: «أربع كلمات انتخبن من أربعة آلاف حديث: لا تثقن بامرأة، ولا تغترن بمال، ولا تحمل معدتك ما لا تطيق، وتعلم من العلم ما ينفعك فقط»[١٤].

وسئل: ما خير ما أعطى الإنسان؟ قال: «غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل»[١٥].

ومن جيد كلامه: «إن العلماء ورثة الأنبياء فإذا كانوا على طمع فبمن يقتدى؟ والتجار أمناء الله فإذا خانوا فمن يؤتمن؟

---

(١٤) الشعراني، ج ١، ص ٦٥، المناوي، ج ١، ص ١٣٢.
(١٥) الذهبي، أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٥١.

والغزاة أضياف الله فإذا غلوا فبمن يظفر على العدو؟ والزهاد ملوك الأرض فإذا كانوا ذوي رياء فمن يتبع؟ والولاة رعاة الأنام فإذا كان الراعي ذئباً فبمن نحفظ الرعية»[(١٦)]؟

وكان يقول: إذا غلبت محاسن الرجال لم تذكر المساوىء، وإذا غلبت المساوىء على المحاسن لم تذكر المحاسن»[(١٧)].

وهذا قليل من كثير من الأقوال الصادقة التي كان يجود بها عبد الله بن المبارك في مجالسه التي كانت تغص بالعلماء والأئمة وعامة الناس، فكان يوزع الدرر ويذكر عسى أن تنفع الذكرى.

---

(١٦) ذيل الجواهر المضية، ج ٢، ص ٥٣٠.

(١٧) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٥.

٣ ـ وفاته ورثاؤه:

ومن الواضح ان ابن المبارك كان في أواخر حياته قد اعتزل الناس وترك الصراعات القائمة في مجتمعه وبدأ يخلو بنفسه ويستعد لملاقاة ربه وعندما اشتاقه أصحابه، بعد أن ترك فراغاً في مجالسهم، عاتبوه في ذلك وقالوا له: يا أبا عبد الرحمن إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال: أذهب مع الصحابة والتابعين، فقالوا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب أنظر في عملي فادرك آثارهم وأعمالهم. فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس، فإذا كان سنة ثمانين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، «وفر من الناس كفرارك من الأسد»، وتمسك بدينك يسلم لك مجهودك(١٨).

وبعد حياة مليئة بالعطاء والتفاني والإخلاص، توفي عبد الله ابن المبارك سنة ١٨١/٧٩٧م بعد انصرافه من الجهاد، وكان يقول: «اللهم لا تمتني بهيت(١٩)، فمات بها»(٢٠)، وله من

---

(١٨) أبو نعيم الأصبهاني، ج٨، ص ١٦٤ ـ ٦٥.

(١٩) هيت: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وبها قبر عبد الله بن المبارك، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٢١.

(٢٠) أبو نعيم الأصبهاني، ج ٨، ص ١٦٤، ابن خلكان، ج ٣، ص ٣٤.

العمر ثلاث وستون سنة، ودفن فيها وقبره هناك ظاهر يزار، ولما احتضر قال لنصر مولاه: أجعل رأسي على التراب، فبكى نصر، فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هوذا تموت فقيراً غريباً. قال: اسكت فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وان يميتني موت الفقراء، ثم قال له: لقني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان[21] ثم فتح عينيه وضحك وقال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[22]. ويسلم الروح إلى بارئها.

وهكذا تنتهي حياة إمام حافلة بالعلم والتقى والزهد والورع البذل والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد توفي الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك وحزن عليه الناس خاصتهم وعامتهم، ودخل الخلل على العلم بموت عالم المشرق والمغرب، وفجعت الأمة بموت ناصحها[23] فرثاه الأئمة والعلماء مظهرين بذلك قدره في أنفسهم، وعلو مكانته حياً وميتاً.

فهذا أبو خالد الأحمر يرثيه قائلاً: «ما هدت الأرض منذ مات سفيان (الثوري) هدتها لموت ابن المبارك»[24].

(٢١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٤٨٢.

(٢٢) المناوي، تراجم الصوفية، ج ١، ص ١٣٢.

(٢٣) محمد عثمان جمال، ص ٢٥١.

(٢٤) ابن أبي حاتم، ص ٢٧٦.

وصديقا العمر يذكرا معيلهما وقد غاب وجهه عن ساحة المجلس، فيقول سفيان بن عيينة للفضيل بن عياض: يا أبا علي أي رجل ذهب؟، يعني ابن المبارك، فقال له الفضيل: يا أبا محمد وبقي بعد ابن المبارك من يستحيا منه؟[٢٥] فقال ابن عيينة: «رحمه الله لقد كان فقيهاً، عالماً، عابداً، زاهداً، سخياً، شجاعاً، شاعراً[٢٦] ثم تنهد الفضيل وقال: «رحمه الله أما ان ما خلف بعده مثله»[٢٧].

وحدث ابن الوزير قال: قدمت على سفيان بن عيينة فقالوا له: هذا وصي عبد الله فقال: رحم الله عبد الله ما خلف بخراسان مثله، فقالوا: لا يرضون، قال: ما يقولون؟ قالوا: يقولون ولا بالعراق، قال: ما أخلف، ما أخلف، ما أخلف، ثلاثاً[٢٨]. وقد نعاه سلام بن أبي مطيع فقال: «ما خلف ابن المبارك بالمشرق مثله»[٢٩].

وكان لابن المبارك في كل مجلس ذكرى ورثاء يليق به، وفي مجلس عبد الرحمن بن مهدي بالبصرة تذاكر القوم

(٢٥) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٣.
(٢٦) ابن أبي حاتم، ص ٢٦٢، النووي، ج ١، ص ٢٨٥، أبو الفضائل الشيرازي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ص ٩٤، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦.
(٢٧) أبو نعيم الأصبهاني، ج ٨، ص ١٦٤.
(٢٨) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٢.
(٢٩) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٦٤.

فضائل ابن المبارك ثم أنشد إسحاق بن راهويه مرثية لأبي قميلة يحيى بن واضح الأنصاري نذكر منها[٣٠].

طـرق الـنـاعـيـان إذ نـبـهـانـي
بـفـظـيـع مـن فـادح الـحـدثـانِ
قـلـت لـلـنـاعـيـيـن: مـن تـنـعـيـان؟
قـالا: أبـا عـبـد ربـنـا الـرحـمـنِ
ثـم فـاضـت عـيـنـاي وجـدا وشـجـوا
بـدمـوع تـحـادر الـهـطلانِ
. . . .
. . . .
لـتـقـي مـضـى فـريـداً حـمـيـداً
مـالـه فـي الـرجـال إن عُـدَّ ثـانـي
يـا خليلي يـا ابـن المـبـارك عبـد الـ
ـله خـلـيـتـنـا لـهـذا الـزمـان
. . . .
. . . .
قـدس الله مـضـجـعـاً أنـت فـيـه
وتـلـقـاك فـيـه بـالـرضـوان

(٣٠) كتاب الورع، ص ٧٤ وما يلي.

أرض هيت فازت بك الدهر إذ
صرت غريباً بها عن الإخوان

. . . .

. . . .

ولمرو قد كنت فخراً فصارت
أرض مرو كسائر البلدان
أوحشت بعدكم مجالس علم
حين غاب المغيث للهفان

. . . .

. . . .

يا قريع القراء والسابق الأو
ل يوم الرهان عند الرهان
ومقيم الصلاة والقائم الليـ
ل إذا نام راهب الرهبان
ومؤاتي الزكاة والصدقات الـ
دهر في السر منك والإعلان
صائم في هواجر الصيف يوماً
قد يضر الصيام بالظمآن
دائباً في الجهاد والحج والعمـ
ـرة يتلو منزل القرآن

. . . .

. . . .

إن ذكــرنــاك ســاعــة قط إلا

هــاج حــزنـي وضــاق عـنـي مـكــانـي

وما زال ابن مهدي يبكي خلال إنشاد القصيدة حتى اشرف إسحاق على نهايتها بعدئذ راحوا يتناولون مناقبه وخصال الخير التي وضعها الله فيه وكانت من عوامل شهرته.

وأخيراً ينتقل الحزن من عامة الناس وعلماء المسلمين إلى الخليفة أمير المؤمنين. فهذا هارون الرشيد يؤلمه فقدان هذا الإمام الجليل فيقول: «مات سيد العلماء» ثم يجلس للعزاء ويأمر الأعيان أن يعزوه في فقيد الأمة وعالمها[٣١].

إلى جانب ذلك كانت لابن المبارك رؤى صالحة، تناقلتها المصادر المعاصرة، والرؤى بصفة عامة، هي الترجمان العفوي لما تشعره النفوس من أحاسيس شخصية أو ذاتية تجاه أمر ما، وفي مثل هذه الحال، فإن الواقع يحملنا على تبرير نظرة المعاصرين لابن المبارك من خلال ما حظي به من مكانة علمية ودينية في الأوساط الشعبية والرسمية على حد سواء.

---

(٣١) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٣، السيوطي، ص ٢٨٥.

ولقد شغل موت ابن المبارك عقول الناس وقلوبهم وتأثروا به حتى رأوه في أجمل صورة، فهو في الجنة مع النبيين والصّديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً[٣٢]، وقد قيل انه رأه محمد بن الفضيل بن عياض في المنام فقال له: «أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال: الأمر الذي كنت فيه قال محمد: الرباط والجهاد؟ قال: نعم...»[٣٣].

فهذه نتف متواضعة عن حياة عبد الله بن المبارك، الرجل الذي كان من أعلام الأمة، وفي سيرته قدوة رائعة تنفح طيباً وعلماً وعملاً، ورباطاً وجهاداً، وجوداً وكرماً، وعبادة وزهداً وورعاً. وفي مواعظه ودروسه ما يحث للقيام بأعمال تحقق باتباعها خير الآمال.

---

(٣٢) الغزالي، ج ٤، ص ٥٠٩.

(٣٣) الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٦٨.

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر:

★ **الإبشيهي** (شهاب الدين أحمد) ت ١٤٤٦/٨٥٠.

ـ المستطرف من كل فن مستظرف، ٢ ج، القاهرة: بولاق، ١٢٩٢ هـ.

★ **ابن أبي حاتم** (عبد الرحمن بن إدريس) ت ٩٣٨/٣٢٧.

ـ تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، ط ١، حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٩٥٢/١٣٧١.

★ **ابن أبي الوفاء** (عبد القادر القرشي) ت ١٣٧٣/٧٧٥.

ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ط ١، ٢ ج، الهند، حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٢٢ هـ في آخره ذيل الجواهر المضية.

★ **ابن الأثير** (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد) ت ١٢٣٣/٦٣٠.

ـ الكامل في التاريخ، تصحيح عبد الوهاب النجار، القاهرة: ١٣٤٨ فما بعدها.

★ **ابن تغري بردي** (أبو المحاسن جمال الدين يوسف) ت ٨٧٥/١٤٧٠.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، عدد من المحققين. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ - ١٩٧٢.

★ **ابن الجوزي** (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) ت ٥٩٧/١٢٠١.

- صفة الصفوة. حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٥ - ١٣٥٦.

- صيد الخاطر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٤٥/ ١٩٢٧.

★ **ابن حجر العسقلاني** (شهاب الدين أحمد بن علي) ت ٨٥٢/١٤٤٩.

- تهذيب التهذيب، حيدر آباد، الدكن، مطبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٢٥ - ٢٧.

★ **ابن حنبل** (أبو عبد الله أحمد بن محمد) ت ٢٤١/ ٨٥٥.

- الورع، د. ن - د - ت.

★ **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨/١٥٠٦.

- المقدمة، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د. ت.

★ **ابن خلكان** (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) ت ٦٨١/١٢٨٢.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (تحقيق إحسان عباس). بيروت دار الثقافة ١٣٩٧/١٩٧٧.

★ **ابن سعد** (محمد بن منيع) ت ٢٣١/٨٤٥.
- كتاب الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر - دار بيروت، ١٩٦٠ - ١٩٦٨.

★ **ابن الزبير** (القاضي الرشيد أحمد بن علي) ت ٥٦٣/١١٦٨.
- الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر ١٩٥٩، سلسلة التراث العربي رقم ١.

★ **ابن الطقطقي** (محمد بن علي بن طباطبا) ت ٧٠٩/١٣٠٩.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت: دار صادر، د. ت.

★ **ابن عبد ربه الأندلسي** (أحمد بن محمد) ت ٣٢٨/٩٤٠.
- العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، وآخرين القاهرة: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٨/١٩٤٩ وما يلي.

★ ابن العربي (الشيخ محي الدين) ت ١٢٤٠/٦٣٨ .
- محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأبيات والنوادر والأخبار القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٦/١٣٢٤ .
★ ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد) ت ١٦٧٩/١٠٨٩ .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة؛ مكتبة القدسي، ١٣٥٠ - ١٣٥١ .
★ ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي) ت ١٣٥٠/٧٥١ .
- كتاب أخبار النساء، القاهرة: مطبعة التقدم، ١٣١٩ هـ .
★ ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقي) ت ١٣٧٢/٧٧٤ .
- البداية والنهاية في التاريخ ط ٤ بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨١/١٤٠١ .
★ ابن منظور (محمد بن مكرم) ت ١٣١١/٧١١ .
- لسان العرب، بيروت: دار صادر - دار بيروت، ١٩٦٨/١٣٨٨ .
★ ابن النديم (النديم محمد بن إسحاق) ت ٩٨٧/٣٧٧ .
- الفهرست، بيروت: دار المعرفة. د. ت.
★ أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) ت ٩٦٧/٣٥٦ .

(١) كتاب الأغاني، مجموعة من المحققين، بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٤ وطبعة القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧ ـ ٦١ وطبعة بولاق، ١٢٨٥ هـ.

(٢) مقاتل الطالبيين، تحقيق النجف، ١٣٥٣ هـ. وتحقيق أحمد الصقر، القاهرة: ١٩٤٩.

★ **أبو نعيم الأصبهاني** (أحمد بن عبد الله) ت ١٠٣٩/٤٣٠.

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت: دار الكتاب العربي ١٩٨٠/١٤٠٠.

★ **أبو يعلى الفراء** (محمد بن محمد) ت ١١٦٥/٥٦٠.

ـ طبقات الحنابلة، اختصار محمد النابلسي، تصحيح أحمد عبيد، دمشق: مطبعة الاعتدال، ١٣٥٠ هـ.

★ **البيروني** (أبو الريحان محمد بن أحمد) ت ١٠٤٨/٤٤٠.

ـ الجماهر في معرفة الجواهر، تصحيح، سالم الكرنكوري الألماني، حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٥هـ.

★ **التنوخي** (القاضي ابي علي المحسن بن علي) ت ٩٩٤/٣٨٤.

ـ الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت: دار صادر ١٩٧١ ـ ٧٣.

★ **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر) ت ٨٦٨/٢٥٥.
- كتاب البخلاء، ط ٢، دمشق: دار اليقظة العربية ١٩٦٣.
- كتاب التاج في أخلاق الملوك، نشره أحمد زكي، القاهرة: المطبعة الأميرية ١٩١٤.
- كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب - دمشق: ١٩٣٢/١٣٥١.
- رسائل الجاحظ، ثلاث رسائل في الرد على النصارى وفي ذم أخلاق الكتاب وفي القيان، تحقيق يوشع فنكل، ط ٢، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٣ هـ.

★ **الجهشياري** (محمد بن عبدوس) ت ٩٤٢/٣٣١.
- كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط ١، القاهرة: ١٩٣٨/١٣٥٧.

★ **الحصري القيرواني** (أبو إسحاق إبراهيم بن علي) ت ١٠٦١/٤٥٣.
- زهرة الآداب وثمرة الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣/١٣٧٢.

★ **الخطيب البغدادي** (أبو بكر أحمد بن علي) ت ١٠٧١/٤٥٣.

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تصحيح محمد حامد الفقي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٤٩/١٩٣١.

★ **الذهبي** (شمس الدين محمد بن أحمد) ت ٧٤٨/١٣٤٨.

- تذكرة الحفاظ، حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٣٣/١٣٣٤.

- دول الإسلام، بيروت: مؤسسة، الاعلمي، ١٤٠٥/١٩٨٥.

- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤط وآخرين بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠١ - ١٤٠٢/١٩٨١ - ٨٢.

- العبر في خبر من عبر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد الكويت: دائرة المطبوعات والنشر ١٩٦٠ - ١٩٦٣ (التراث العربي ٥١).

★ **الراغب الأصفهاني** (أبو القاسم حسين بن محمد) ت ٥٠٢/١١٠٨.

- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦١.

★ **السيوطي** (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١/١٥٠٥.

- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ١، مصر مطبعة السعادة، ١٣٧١/١٩٥٢.

★ الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد) ت ٣٨٨/٩٩٨.
ـ الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، بغداد: مطبعة المعارف ١٣٨٦/١٩٦٦.
★ الشعراني (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد) ت ٩٧٣/١٥٦٥.
ـ الطبقات الكبرى المسماة بواقع الأنوار في طبقات الأخيار القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.
★ الشيرازي (أبو إسحاق إبراهيم) ت ٤٧٦/١٠٨٣.
ـ طبقات الفقهاء، تحقيق د. احسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.
★ الشيزري (أبو الفضائل عبد الرحمن بن نصر) ت ٥٨٦/١١٩٣.
ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦.
★ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت ٧٦٤/١٣٦٣.
ـ الوافي بالوفيات ج ١٧ باعتناء دوروتيا كرانولسكي، بيروت: دار الأندلس، ١٤٠١/١٩٨١.
★ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) ت ٣١٠/٩٢٣.

- تاريخ الأمم والملوك، تصحيح نخبة من العلماء، بيروت، مؤسسة الأعلمي. د. ت.

★ الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد) ت ٥٢٠/١١٢٦.

- سراج الملوك، الإسكندرية: المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.

★ الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد) ٥٠٥/١١١١.

- إحياء علوم الدين، القاهرة: المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢ هـ.

★ الغزولي (علاء الدين علي بن عبد الله البهائي) ت ٨١٥/١٤١٢.

- مطالع البدور في منازل السرور، القاهرة: مطبعة إدارة الوطن، ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ.

★ القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن) ت ٤٦٥/١٠٧١.

- الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت.

★ اللكنوي (أبو الحسنات محمد عبد الحي) ت ١٣٠٥/١٨٨٧.

- الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تصحيح محمد بدر الدين الغساني القاهرة: الخانجي ١٣٢٤.

★ المسعودي (علي بن الحسين) ت ٩٥٦/٣٤٥.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر. ط ٢، بيروت: دار الأندلس ١٩٧٣/١٣٩٣.
★ المكي (أبو طالب محمد بن علي) ت ٩٩٦/٣٨٦.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦١.
★ المناوي (الشيخ عبد الرؤوف) ت ١٦٢٢/١٠٣١.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تصحيح محمود حسن ربيع، القاهرة: مطبعة الأنوار، ١٩٣٨/١٣٥٧.
★ النواجي (شمس الدين محمد بن الحسن) ت ١٤٥٥/٨٥٩.
- حلبة الكميت، القاهرة: مطبعة إدارة الوطن، ١٢٩٩ هـ.
★ النووي (أبو زكريا محي الدين بن شرف) ت ١٢٧٧/٦٧٦.
- تهذيب الأسماء واللغات، تصحيح شركة العلماء، القاهرة: إدارة الطباعة والنشر، د. ت.
★ ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ١٢٢٨/٦٢٦.

ـ إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، تحقيق د. س. مرجليوت، القاهرة: مطبعة هندية ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦.

ـ معجم البلدان، بيروت: دار بيروت ـ دار صادر ١٣٩٩/١٩٧٩.

★ **اليعقوبي** (أحمد بن واضح) ت ٢٨٤/٨٩٧.

ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر ـ دار بيروت. د. ت.

ـ مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢.

ثانياً ـ المراجع:

★ **جمال** (محمد عثمان)

ـ عبد الله بن المبارك، ط ١، دمشق، بيروت: (دار العلم) ١٣٩١/١٩٧١.

★ **العبادي** (أحمد مختار).

ـ في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

★ **عمر** (فاروق).

ـ طبيعة الدعوة العباسية، ط ١، بيروت: دار الأندلس، ١٣٨٩/١٩٧٠.

★ **ماجد (عبد المنعم).**
- التاريخ السياسي للدولة العربية. ط٣، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦.
- العصر العباسي الأول، ج ١، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩.

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة